رواية
عبث وجنون
مروان طارق

رواية

عبث وجنون

مروان طارق

رواية

عبث وجنون

مروان طارق

ولكن الأيام نسيج من هموم صغيرة ..

و هل ثمة نعمة أعظم

من أن تكون أنت الرماد الذي يُخلق منه النسيان ..

لويس بورخيس

أحمد الراوي

تخللت علوية اللوكاندة برفقة رجلان لم أتبين ملامحهم أثناء إنقطاع الكهرباء . ولكن يبدو علي هيكلهم انهم في الأربعين من العمر . إقتربت مني علوية وهي تطلق الضحكات الخليعة في كل مكان وتسير متهادية محركة أهدابها في دلال.
إستمالتني علوية بعيداً عنهم بضع مترات ثم همست في أذني كالشيطان قائلة :

- خليل باشا يريد حجرة مجهزة ..

فهمت مقصدها وقلت لها بنفس الصوت الهامس

- ماذا افعل ..ألم تجلبي له فتاة من فتيات الملهي ؟

إنحنت علوية أكثر نحو أذني وقالت هامسة :

- خليل باشا لا يريد فتاة ..!

- ماذا ..!؟

أدركت ما ترمي إليه مفسحاً المجال لإبتسامة ساخرة أرغمتني علي الخروج . وبينما كنا نتهامس انا وعلوية ، إقترب خليل باشا الذي لا أري منه شئ سوي أنه مجرد جسد يترنح يميناً

ويساراً ..ثم دنا برأسه نحو الشاب الذي يرتدي البذلة العسكرية . ثم جلس علي طرف الأريكة المجاورة لمقعدي وأخذ يعبث بجسد الشاب الذي كان فاقداً الوعي تماماً . ذلك الشاب الذي وجدته منذ فترة قصيرة أمام اللوكاندة وأدخلته بمعاونة بعض المارة الذي رآوه يسقط علي الأرض . ثم أودعته الأريكة المجاورة لي إلي أن تدب فيه الحياة من جديد .. همست لي علوية بعد ان تفحصت أفعال خليل باشا الذي أخذ يملس علي جسد الفتي الذي تغمره الندبات :

- من هذا الشاب ..؟!

وقبل أن أهم في الرد وضعت علوية إصبعها علي فمي فجفت الكلمات علي لساني . ثم رفع خليل باشا الشاب علي ساعديه وضمه إلي صدره حتي لا يسقط ثم صعد به الدرج وهو يلتهم جسده بنظرات جائعة . ثم تأبطت علوية الرجل الآخر الذي يدعي سالم باشا عدلي ثم صعدا الدرج علي أنغام ضحكات خليعة من علوية ..

(٢)

إنعدمت الرؤية أمامي . بات كل شئ مصبوغ باللون الاسود الداكن . لم اري شى من حولي .. الظلام في الخارج وفي

الداخل . جلست في مقعدي أناجي العدم . قد خلا الجميع إلي عمله وبقيت هنا وحدي . سمعت أبواب الحجرات تضطرب . خرج (مصطفي الراوي) من حجرته وثقبني بنظرات غاضبة بعيناه التي تزدان ببريق لامع يميزها عن مثل عيني التي لا توحي بأي بريق أو حياة . هبط الدرج وهو يلتهمني بنظرات شديدة الغضب ثم إفتعل الهدوء قائلاً :

- هل أجد عندك عود ثقاب ..

منحته علبة الثقاب ثم إلتقطها من يدي دون أن يصرف عينه عني . ثم إبتسم إبتسامة مقتضبة وهو يلتهمني بعينه الزرقاء التي لمعت في الظلام . ثم أشعل عود ثقاب وقربه إلي وجهه . إنسحبت إلي الماضي عنوةً وتشكلت برأسي صورة عتيقة جعلتني ألفظها في وجه مصطفي المنتصب أمامي :

- ثروت أفندي ..

- ماذا ..!؟

- لالا .. لا شئ ..!

ثم أطفأ عود الثقاب وأشعل غيره ثم صعد الدرج تاركاً المجال للماضي كي يعبث بعقلي الهزيل المتهدم .

وذهب إلي مكان لم اتبينه في الظلام متجهاً إلي حجرته . سمعت أبواب تصطك في الأعلي عندما تخللا اللوكاندة شاب وإمرأة يترنحان بأقدام خائرة وعقول ثملة . سمعت ضحكتها

الخليعة من بعيد . تقدمت نحوي وصفعتني علي عيني ببريق شعرها اللامع الذي أخذ يومض في الظلام . إستكانت وجوههم في الظلام فلم اتبين ملامحهم . إشتممت في صوتها رائحة عطنة ، ثم إزدردت ريقها بصعوبة قائلة :

- نريد حجرة .

تباً للعفيفات .. يالعظمة المرأة التي تبتاع جسدها حتي يطأها جميع الرجال . أجلستهما علي الأريكة المواجهة لمقعدي حتي تعود الكهرباء . سمعتها تقبله وتلتهم شفتاه في الظلام . مر بعض وقت حتي عادت الكهرباء إلي المكان . كنت علي وشك النوم . وبمجرد ان قمت من مجلسي ، تعالت صرخات في أرجاء المكان . لم أتبين مصدر الصوت بالضبط . صعدت الدرج العتيق وشعرت بخطوات الشاب والعاهرة ذات الفم العطن تتسارع من خلفي . إعتراني الخوف عندما أيقنت ان (علوية) هي صاحبة الصوت . لماذا تصرخ ...؟ ماذا حدث .. تخللت الباب الخارجي . دخلت اهرع خلف الصوت . كدت أصرع عندما رأيت سالم باشا مرتمياً علي الأرض عارياً . لم اعلم حينها لماذا كان مصطفي واقفاً مشدوهاً بجسده العاري تماماً . كانت ملابسه مبعثرة تحت إبطه ولكنها سقطت عندما رأي سالم باشا مغشياً عليه ، ولكن الأمر الأكثر غرابة كان مصطفي الذي وقف بجوار حجرة أمه .

لماذا يقف مصطفي أمام حجرة امه ..؟ هل رآها تزاول مهام العمل ..؟

ولكن لماذا كان عارياً هكذا ..؟

يا لك من مسكين يا إبن العاهرة .!!

خرجت علوية من حجرتها عارية ملفوفة في ملاءة بيضاء لم يختلف لونها عن لون جسدها الناصع الذي تشوبه حمرة مثيرة . وقفت بجواره مشدوهة مثله .. وعلي عيناها دموع تريد السقوط . خرج ساكني الحجرات الأخري يهرعون خلف صوت الصراخ الذي إعتلي كل شى في المكان . إنطلق (سليمان الراوي)نحوهم بملاءته الملفوفة حول خصره العريض ، ومن خلفه جاءت شوقية بجسدها العفن المهمل . أحكمت لف الملاءة علي جسدها الصغير . ثم هرع إليهم خليل باشا حاملاً مسدساً صغيراً . لا اعرف لماذا لم تخبرني علوية ان خليل باشا الذي إصطحبته معها . كان (خليل الراوي) إبن عمي . واحسرتاه . كانت فرصة ذهبية كي أصرخ ضاحكاً في وجه ذلك اللوطي . صرخ سليمان بصوت حاد :

- ماذا حدث ..؟ هل مات هذا الرجل ..؟

لم يصدق سليمان ما يري . كادت تخرج عيناه من محجريها . إعتقدت ان قلبه سوف يتوقف عن النبض . ولكن لازال في عمره سنوات إضافية .

إفترسها بعينه . تفحص جسدها متفجر الأنوثة . اعتقد انه تذكر يوم وطأ هذا الجسد .

لا تتذكر جسدها ايها الأحمق فقد بات ملك للجميع..

كدت أصرخ ضاحكاً .. لم ينبث مصطفي ببنت شفة . لم تهتز له شعرة حتي بعد ما تعرف علي ابيه المفقود منذ عمر . إقترب سليمان من علوية وهو لا يصدق انها باتت عاهرة . اجهشت عينه في البكاء عندما صرخ فيها .

- أين إبني يا علوية ؟

لم تنطق علوية المتجهمة . كانت كمن ذهب عقلها . كانت كتمثال عتيق . أبت الكلمات ان تخرج فإكتفت بأن وضعت يدها فوق مصطفي . نظر سليمان إلي جسد مصطفي العاري المنكمش و إلي ملابسه الملقاة علي الأرض . لم يتمالك نفسه فأجهش في بكاء شديد إهتزت له مشاعري الميتة المتبلدة . وعندما رأي سليمان خليل بجانبه إستشاط غضباً وأحكم لف الملاءة علي خصره جيداً . ثم نظر متقززاً إلي جسد خليل الراوي المتهدل . حول سليمان نظره إلي مصطفي ثم قاده في صمت قاتل إلي الداخل وخلفه شوقية بجسدها المثير للسخرية . ومن خلفي كان الشاب والعاهرة يتفحصان المشهد في إمعان . نظرت نحوهم كي اتفحص ملامحهم التي حرمني الظلام من الامعان فيها . لم اصدق ان العاهرة كانت (هدي الراوي) إبنة أخي .

ما اكثر العاهرات في عائلتنا . كانت هدي الراوي ذات جمال فتان ساحر . إذ لم تكن نبياً مترفعاً عن الرغبات البشرية ومحاط بالدرع الإلهي المتين فإنك واقع في قبضتها لا محالة . كنت عندما اراها أصرع شهيد لرغباتي الشبقة تحت قدميها . تسلبني كل شئ . جسدها المثير المنحوت الملتهب كان يعبث بغريزتي النشطة ويلهب شهواتي التي لم تشبعها فاطمة المتبلدة .. انا اول رجل علي وجه العالم يشتهي جسد إبنة اخيه .. يا له من لقب غير مسبوق .

كنت احسد مصطفي الراوي علي حظه الواسع . رزقك الله يا مصطفي بعائلة ساقطة . ما اروعنا ..!

الآن انت بين أهلك . انت بين اقرانك . علي يسارك والدتك علوية هانم الصاوي عاهرة من الدرجة الأولي . لا تعاشر إلا الأغنياء والمشاهير وأصحاب الكلمة في البلاد . أما عن يمينك فوالدك الغالي سليمان الراوي الذي يريد الجميع الفتك به بعدما أراد برفقة زملاءه السطو علي السلطة وإزاحة الزعيم جمال عبد الناصر من الحكم . يا له من احمق . عفواً يا لهم من حمقا .. وبجواره شوقية عاهرة من الدرجة الدنيا . دميمة وغير صالحة لمعاشرة كلب من كلاب الشوارع . ولكنها صالحة لمعاشرة سليمان الراوي . وهاهي إبنة عمك هدي الراوي التي تمارس عملها في بيع جسدها لمن يشتهيه بكل

حب وقبول . عاهرة عن حب .. وبجوارك خليل الراوي إبن عم والدك .. احد الظباط الأحرار الذين إمتطوا موجة الثورة حتي إغتنوا وعاشوا حياة مترفة مع المال والسلطة ولكن أنظر له الآن وهو مخموراً يمارس اللواط تحت حراستي وعنايتي . وبجواره إبن عم والدك (أحمد الراوي) لا اريد الحديث عن نفسي ولكني يا بني أشرف شخص في هذه العائلة . يقولون أني قواد . ولكني لا احب هذا المسمي . إني رسول للمتعة يا حمقا . مفتاح لابد ان تقتنيه لكي تنول الجنة . جزء لن تسير الحياة من دونه . عندما يعلم العالم حقيقة امري سيصنعون لي تمثالاً ويسجدون له ويقدموا له القرابين والهدايا . ويتوسلون له في قضاء حاجتهم وشفاء مرضاهم . في سبيل سكان هذا العالم تنازلت عن كل شئ . لم اقتني المبادئ في حياتي فخدمتكم اولي لي من هذه التفاهات . انا سيد هذا العالم . انا إلهكم العظيم ..

وفي تلك الأثناء عاد الشاب إلي وعيه وخرج من حجرة خليل الراوي ، وفي يده ملابسه المهترءة . كان مشدوهاً لا يصدق ما حدث . كانت الدموع متصلبة علي وجهه ، كان يبكي بشدة ولكن باقي ملامح وجهه كانت جامدة تماماً . تفحصته أعيننا جميعاً خاصة خليل الراوي الذي إلتهمت نظراته

جسده العاري .

- إبراهيم الراوي ..!!

لفظها الجميع مشدوهين غير مصدقين . غمرتنا الصدمة .. تبدل وجه خليل الراوي عندما رأي ذلك العسكري الذي يحمل ملابسه المخضبة بالدماء . لا يصدق انه ضاجع إبراهيم الراوي . هبط إبراهيم الراوي الدرج غير أبه بجسده العاري الذي إلتهمته عيون الظلام . ثم سار في الشارع كالمجنون . أما خليل الراوي فقد وقف مشدوهاً كمن ضرب بشئ معدني ثقيل علي رأسه .

(٣)

خرج مصطفي برفقة سليمان الراوي وشوقية . خرجوا منكسي الرؤوس ملطخين بالعار . حتي الشاب الطاهر لم يسلم من عار تلك العائلة . اللعنة لكم .

لم يكن مصطفي سوي ملاك يعزف الحان العفة والطهارة لعائلة يملأها الخطاة . يخوض الظلام القابعة عائلته بداخله بنفس عفيفة سوية . ينظم الشعر ويقفيه لتدهسه اقدام العاهرات . لن تتركك الحياة تعزف ألحانك كما تريد . لابد للعار ان يلحقك . لابد للدنس ان يلطخك . الخطاة لا يموتون وحدهم . الخطاة لا يموتون ..

★★★

" الأبطال لا تموت . الأبطال تحيا في القلوب العاشقة . لا تمحي أثارها ولا تندثر . قد تفني الأجساد ولكن الأبطال تظل صورهم عالقة في الاذهان . لا تتحرك ولا تهتز . لا تجرفها الأيام الموحشة . ولا تقتلعها رياح الزمن . لا يدنسها نجس . ولا يعكر صفوها شئ .

لم استطع كبح جماح قلمي عندما نويت كتابة هذا المقال . كان قلمي يقفز بين السطور متهللاً وفرحاً لجمال ما يكتبه ... مات (أمين الراوي) ولكنه مازال حياً في قلوبنا جميعاً . ذلك البطل الذي ضحي بكل شئ في حياته من اجل هذه البلاد ...."

يا لك من كاتب مهرج ..اللعنة علي نقودي التي انفقتها علي تعليمك . ربيت وقحاً يتاجر بتاريخ والده . امين الراوي رافقته المدينة بأكملها إلي مثواه الاخير . أما انت فلن يسير في جنازتك احداً سوايا ايها الأحمق .سأرافق نعشك حتي أتبول علي جسدك الفاني ثم اغمرك بالتراب واعود إلي عملي وكأن شيئاً لم يكن . سأروي للجميع أني تبولت علي جثتك . حتي يجزع الناس عند سماع إسمك . ستموت كلماتك

المتلونة التي تشعل بها صفحات الجرنال كي تستحوذعلي عطف الحمقا أمثالك . تلك الكلمات المنتفخة التي لا يوجد بداخلها سوي الهواء الفارغ .

هراء ثم هراء ثم هراء ....

اريد ان اكمل مقالك الركيك بأن الهتافات الرنانة لا تصنع أبطالاً .

عندما أظلم الليل وهدأت الجلبة تماماً . صعدت إلي أعلي منزلنا . تأكدت ان لا أحد يتبعني فأكملت عبور الدرج .. تلك عادتي التي غرست فيا عند ولادتي . مشاهدة النوافذ المثيرة . المشاهد كانت تلهب أنفاسي . في البيت المواجه لبيتنا كانت تعيش (ام حميد) بائعة الجبن .. كان لها اربع أبناء

(مديحة) و (صفية) و (سناء) وإبنها الأصغر(حميد) ..

سبق لي ان رأيت ام حميد كما ولدتها امها عشرات المرات . بعدما وسعت خبرتي بجسد المرأة علمت انها كانت شيئاً أقرب إلي المسخ . بجسدها مبتور البروز ومنطفئ المفاتن . صدرها الصغير المتهدل . ووجهها صاحب البشرة الداكنة

التي إعتلته التجاعيد. وملامحها الريفية الشاحبة، وشعرها الذي إفترشه الشيب كالنار في الهشيم . كانت علي النقيض من إبنتها الكبري مديحة . الفتاة العشرينية المثيرة . الذي ينطق جسدها بكل شئ ليخبرك طريق الجنة . جسد بض منحوت ، بصدر مكتنز مدبب ورقبة عريضة بيضاء منغمسة في نهدين عريضين، وملامح حادة تنادي الذئب القابع داخلك . أما عن صفية فكانت الأقرب في إخوتها إلي ملامح امها الريفية مع مسحة أنثوية جذابة وبشرة تميل إلي اللون الأبيض التي تشوبه حمرة لطيفة . كانت صفية اقل حظاً من أختها الكبري والصغري من حيث قوامها وجمالها . فكانت أقرب إلي شاب في عمر المراهقة . لم ينجح جسدها العاري ان يثير بداخلي اي شئ . فقد إستحوذت مديحة علي كل شئ بداخلي . ومن قبلها امها التي سلبتني عهد الطفولة في وقت لم اكن اعلم الكثير عن جسد المرأة . أما عن سناء فكانت فتاة صغيرة العمر . فارت مفاتنها مبكراً . تسير في وداعة وبراءة الاطفال غير عابئة بالعيون الجائعة التي تلتهم جسدها المثير .. ذلك الإحساس الذي لا استطيع محوه من جوانب غريزتي . تلك المكونات الأنثوية التي آراها لأول مرة . كنت متيقناً بأن في المستقبل القريب ستصبح سناء الأجمل بين إخوتها .. بنظرتها الهائمة وعيناها المكحلتان . وقوامها الممشوق الطويل . وملمسها الناعم وصوتها الرقيق الذي يداعب

شهواتي برفق الطفولة . أما عن حميد فكان طفلاً أبلهاً لا يعي حجم الكنز المدجج به منزله .

(٢)

ذات يوم تخللت منزلنا بعدما أنهيت ليلة ساخنة أعلاه .. ترنحت علي الدرج وشعرت أني سأسقط من أعلي . كانت النشوة تسري في كل عروقي . طرقت الباب ففتحت لي امي بوجه متجهم وملامح مضطربة بعض الشئ . كنت احسد أبي علي تلك المرأة القوية . لم تكن أمي مجرد إمرأة بسيطة . بالطبع لا بل كانت امرأة حازمة واثقة كانت بمثاب ة مديرة المنزل . كان لها شخصية قوية وكلمة مسموعة بين الجميع .

إتجهت إلي حجرة والدي لآراه قبل ان اخلو إلي فراشي . إقتربت منه في هدوء بخطوات حثيثة حتي لا أُزعجه . وقفت بجانبه عشرات الثواني دون ان ينظر إليّ . نازعتني ظنوني بكل قوة وضراوة . إضطربت نظراتي و إنحبست أنفاسي . إلتهب الدم في عروقي . وانسابت دفعات غزيرة من الادرينالين في جسدي النحيل . كانت امي تقف علي باب

الحجرة تتكأ بيديها علي كتف حسين .. اخي ..إقتربت امي من فراش أبي الذي لم يصدر اي حركة وكأن جسده قد إستحال إلي جسم خشبي لا يتحرك ولا تتدفق بداخله أنفاس الحياة . نزلت برأسها إلي مستوي جبهته وطبعت قبلة حارة ألهبتها دمعة فرت هاربة من عينها . ثم غطت وجهه . في هذه اللحظة كنت قد وصلت إلي قمة الحيرة . ماذا حدث ...؟!!

إقتربت مني إلي ان زالت المسافة بيننا ثم طبعت قبلة فاترة علي جبهتي ثم خرجت برفقة اخي .

لم أوقن حتي الآن أن أبي قد فارق الحياة . لم يكن لذلك الأمر سابق معرفة بالنسبالي . مجرد افكار طفولية سازجة أقرب إلي الخيال . كانت المرة الأولي التي أري فيها الموت رؤي العين . اعترف بأن ذلك الحدث قد حول دفة تفكيري في كل شئ حولي . سهولة وقوع الموت لابد ان توقظ كل شى بداخلك . مهما بلغت من نفوذ وقوة فأنت منزوع المصير . لا تملك شيئاً في الحياة . ستموت انت وتندثر ذكراك . ويولد غيرك الألاف .. وتصبح مهمة تذكر إسمك الثلاثي عملية شاقة . إنها الحياة لا يبقي فيها أحد ..

تسللت إلي خزانة والدي واخرجت طربوشه وجلبابه ، قفزت بداخلهم بكل سهولة . نظرت إلي المرآة التي رأيت في خلفيتها صورة أبي الذي فنا عمره . كانت هيئتي تشبه من سيقدم

عرض تهريجي بعد قليل. كنت غارقاً داخل ملابس أبي الفضاضة . كنت نحيلاً داخل جلبابه . اما عن الطربوش فقد إبتلع رأسي بداخله . هندمت ملابسي وطبعت قبلة علي جبهة أبي ، ثم إلتقطت مفاتيح المقهي الموضوعة بجانبه ثم إنصرفت . إنتصبت أمي من جلستها علي صوت إغلاق باب حجرة أبي . دمعت عيناها عند رؤيتي ثم افسحت المجال لإبتسامة صارعت من اجل الظهور . خرجت بوجه متجهم وملامح متبلدة. خرجت إلي (شارع المحافظة) فتحت باب المقهي الموصد وسط دهشة الناظرين وسخريتهم. فتحت الراديو وكنست الأرض وغمرتها بالماء البارد . فتحت النوافذ العملاقة وجلست علي مقعد أبي ... رأيت من مكاني عمي (يوسف الراوي) وهو يتفحصني بنظرات حادة أثناء وقوفه بشرفة منزله .. إجتمعت العائلة في شقتنا . واكتمل الجمع بعدما أتي سليمان الراوي وخاله (أحمد عبد الحي) تخلل أحمد عبد الحي بيتنا بقسماته الحسنة وقامته الطويلة والعود الذي لا يسير بدونه .. لم اصعد إلي منزلنا ذلك اليوم . لم يتساءل احد من العائلة عن أمري ، ظناً منهم بأن الجنون قد عاس في رأسي . بالرغم من صغر عمري إلا ان عيني لم تذرف دمعة واحدة علي موت أبي . حتي شعرت بأن همسات عائلتي التي كانوا يتداولونها فيما بينهم كانت صحيحة. لوهلة شعرت ان شيئاً قد عبث بعقلي . كنت اجلس علي مقعد أبي وانا معدوم الإدراك . لا أري و لا اتكلم و لا اشعر بدوران

العالم من حولي . بعض الأفعال التي إرتكبتها في حياتي لم يكن لها أي بواطن بداخلي . وكأن الجنون قد تملكني بالفعل . مات أبي وماتت معه أيامي العابثة . لم يعد هناك جدوي لعهد الطفولة في حياتي لأني لم اعد طفلاً بعد . لابد ان أكمل حياة أبي التي إنتهت اليوم . لابد ان أملأ مكانه وكأن شيئاً لم يكن . فحسين لازال صغيراً وفي حاجة إلي الرعاية . وأمي لابد ان تجدني بجانبها . فهي في حاجة الآن إلي رجل بجانبها يعمل علي راحتها . فهي الآن ليست في حاجة إلي الطفل الكامن بداخلي . فهذا الطفل لابد له ان يموت . او ان يسير بعيداً إلي غير رجعة .

كان والدي رجل ثري بمحبة الناس إليه . بشخصيته المرحة الودودة . وملامحه المنمقة بعينه الداكنة وشاربه الكثيف وشعره المستوي أسفل الطربوش و هيئته الرجولية . كان الكل يتحدث عن بطولات أبي . كان أبي من المناضلين ضد الاحتلال الإنجليزي . حارب بدمه ضد الاحتلال وثار ضد بطشه في كل ميادين مصر . كان يكره الاحتلال ويحلم بجلاءه عن مصر . حكي لي ذات يوم بأنه كان مشترك مع زملاء له في عمليات تصفية فردية للجنود الإنجليز بشوارع الاسكندرية . كانوا يتسللون إلي احدهم ثم يجذبوه إلي احد الأزقة ، وفي عتمة الظلام يجهزوا عليه . ظلوا في هذا العمل

لفترات طويلة . وفي احد الأيام ليلاً كان أبي يسير في أحد الشوارع عائداً إلي منزله . بينما سمع صوت صراخ شديد يتردد صداه في الشارع الخالي . وإذا بجندي إنجليزي يمسك بزوجته ويضربها بكل ما أوتي من قوة . ويجرها في الشارع . إطمئن أمين الراوي إلي خلو الشارع من الناس ومن الضوء . وبضربة خنجر واحدة أنهي كل شئ . أمسكت المرأة الإنجليزية بركبتي أمين الراوي ، وساعدها هو علي النهوض . مسح الدموع التي غمرت وجهها ثم سارا سوياً تحت عين بحر الاسكندرية الهادئ . أثناء السير قصت عليه بلغة عربية ركيكة أمرها مع زوجها ذلك الجندي الغليظ . وحكت له عن زواجها الذي تم بالقوة . وانها لم تكن تريد المجئ إلي مصر ولكنه إصطحبها معه قهراً إلي هنا . كان زوجها يعاملها بغلظة . ويبرح في ضربها وينكل بها ويذلها ، لذلك كانت تحاول الفرار منه ولكنه كان يجدها في كل مرة . وبعد كل محاولة هرب فاشلة كان يزيد من سوء معامتلها . وفي تلك الليلة عرف إسمها (ميري سميث) وعرف عنوان منزلها التي كانت تعيش فيه مع زوجها . أحبها أبي بالرغم من انها إنجليزية الأصل . ولكن لم تكن بفظاظة رجال الإحتلال . بل كانت جميلة ولطيفة الطابع . سحرته الفتاة الانجليزية بوجهها الملائكي الصافي . وعيناها التي في زرقة البحر، التي تذيبك بداخلها في ثوان معدودة . وشعرها البني اللامع كحبات اللؤلؤ . ونبرة صوتها الهادئة المترفعة عن كل ألوان الصخب

الدنيوي . تزوجها أبي وأحبها بعد الزواج اكثر واكثر . وعشقها بشدة بعد إنجابه منها ولدان . احدهم كان يشبهها تماماً وهو حسين اخي . (الخواجة حسين) كما كنت اسميه . أما انا فكنت شبيه أبي . عاش أبي حياة سعيدة مع زوجته التي كان يحبها كثيراً وهي ايضاً .. ولكن سعادته لم تكتمل . فقد مات قبل ان يري جلاء الاحتلال عن مصر .

(٣)

لا اعتقد ان هناك شخص يقطن الاسكندرية لم يمشي في جنازة أمين الراوي . كان الأمر مثير للهيبة والفخر . الكل حزين . البعض يذرف الدموع. والبعض يروي بطولاته . والبعض هائم لا يصدق . تفحصت الوجوه الشاحبة الصارخة بالحزن . تفحصت عائلتي التي تقدمها اخوة أبي يوسف الراوي وصفوت الراوي . ومن خلفهم أبناء عمي سليمان وخليل و إبراهيم . وانا وحسين اخي كنا نتقدمهم . كنت مشدوهاً غير أبه بقوة الحدث . لم يكن علي وجههي الحزن الكبير . كنت طفلاً لم اتعدي الخامسة عشر . لا اعلم اين توارت دموعي . هل مات قلبي ولم يعد يشعر بأي شئ . في الطريق إلي مقابر عمود السواري . إنضم إلي الجنازة ثلاث أشخاص لم اكن أعرفهم . كانوا منهمكين في بكاء شديد جذب

نظر الجميع إليهم . ويصرخون بصوت متهدج . هجموا علي النعش في حركة واحدة ، ثم رفعوه بقوة جعلتني أظن أن بداخل كل واحد منهم قوة ألف رجل . كانوا في عمر أبي أو أصغر قليلاً . أخرج أحدهم شعار المملكة المصرية باللون الاخضر والهلال والنجوم الثلاث ، ثم غطي به جسد أبي . تعالت التكبيرات أكثر وإشتلعت جذوة الحماس وانتقلت كالعدوي بين الجميع . إلتهبت الوجوه التي كانت مشوبة بالموت . بعد إنتهاء مراسم الدفن وأثناء عودتنا إلي المنزل . إتجه إليّ أحد الرجال الثلاث الذين إنضموا إلي الجنازة مؤخراً . كنت بجوار أمي وأخي ومن خلفنا باقي العائلة . تقدم نحوي بخطوات هادئة . كان رجل أربعيني ولكنه لازال يتمتع بصحة جيدة . كان طويل القامة قوي البنية. لديه نظرة حادة قوية . بشعره الذي بدأ اللون الأبيض يحتل أطراف رأسه . وجبهته العريضة وعيناه الداكنتان . وذقنه الممدود لأسفل كإخناتون إله الشمس . إقترب مني ببذلته الرمادية حتي حرمني من أشعة الشمس . وفي الظلام الناجم عن ضخامة هيكله ، أعطاني حقيبة بنية ذات حجم صغير كان يتأبطها أسفل ذراعه . منحني إياها ثم سار بعيداً دون أن يُفهمني شئ . وقبل أن تلوح امامي علامات الحيرة . ملست أمي برفق علي كتفي، وإبتسمت لي إبتسامة هادئة بردائها الأسود التي بدت بداخله كنجم من السماء . ثم قالت بصوت واهن يملأه الحزن :

ـ ثروت أفندي عبد الدايم ..

أُقيم العزاء في الليل وتناوب الناس علي المجئ . كانت الناس تهطل علينا من كل مكان .و بعد إنتهاء العزاء إنصرف الجميع . فتحت باب المقهي وتسللت إلي الداخل ، وفي يدي الحقيبة البنية . جلست في الظلام الذي إحتواني . لم استطع ان أري شى من حولي إلا صورة أبي الذي رسمتها مخيلتي أمامي. في حضرته تذكرت حقيبة صديقه التي أهداها لي . فإلتقطها وأخرجت محتواها . أخرجت اول الأمر شئ قماشي تحسسته بأناملي فعلمت أنه قميص . ثم أخرجت يدي شئ ثقيل معتم لم اراه في الظلام ...وبمجرد ان شرعت في التدقيق في ذلك الشئ . سمعت صوت خطوات يقترب مني في الظلام ، ثم إشتعل عود ثقاب بيد مجهولة . وقربه مني . لم اصدر اي حركة . كنت مشدوهاً لا اعي ما يحدث ..!

قمت من مجلسي وفي يدي محتويات الحقيبة البنية . أخذ عود الثقاب في الإقتراب حتي بات علي مقربة مني . لم اعي حتي الآن من ذلك المجهول . إنطفأ عود الثقاب فأشعل غيره سريعاً ، وأخذ يقترب مني ذلك المجهول بعود الثقاب أكثر ، ثم إلتقطت يده القميص الأبيض في رفق . وأخذ يتحدث بصوت متأثر وبحركات تمثيلية رأيتها تلوح في الظلام :

- كنت احمله علي كتفيا . أسير به بين الجموع الغاضبة . نلهب الجماهير حماسة علاوة علي حماسها الذي لم ترتخي

جذوته . وفجأة وإذا بعشرات من الجنود الإنجليز يتوقونا من كل ناحية . سقط الكثير صرعي ولكن الله كان حصناً لأبيك ، فإرتطمت الرصاصة بكتفه لا قلبه . حملته علي كتفي ولكن هذه المرة حملته صريعاً . وهرعت به بسرعة شديدة .

إحتضن القميص الذي رأيته أبيض ملطخ بالدماء أسفل وميض عود الثقاب . ضم القميص إلي صدره واختلطت دموعه بالعرق الناجم عن الحركات والإيماءات التمثيلية التي كان يقوم بها . ثم إلتقط من يدي الشئ المعدني الثقيل بعدما أرخيت جسدي تماماً إلي أحد المقاعد كي أشاهد ذلك العرض المسرحي الشيق . أمسك بالشئ المعدني وأشعل عود ثقاب جديد بجانبه فظهر أمامي مسدس صغير يبدو عليه القدم . ثم أكمل حديثه وهو يمسح المسدس بأنامله السميكة :

- كان يشبه الوحوش وهو يفتك بجنود الاحتلال بهذا السلاح .

انطفأ عود الثقاب فوضع أمامي القميص والمسدس ، ثم سمعت خطواته تبتعد ، وعند باب المقهي أشعل آخر عود ثقاب وقربه إلي وجهه . فأدركت انه كان صديق أبي الذي منحني الحقيبة البنية في الصباح . إنطفأ عود الثقاب ورحل الرجل بعيداً بينما تركني أنزف اول دمعة لي علي موت والدي .

★★★

ذهبنا بالأمس إلي قبر والدي قرأنا الفاتحة علي روحه . وتصدقت نساء العائلة ببعض الدموع الفاترة . فقد مر عشر سنوات تقريباً علي الأمر . إنطفأ الحزن بقلوبنا . بات أمين الراوي ذكري في أذهان الجميع .

أنهي الجميع صلاة الجمعة . وصعد الجميع إلي بيتنا . كانت من العادة أن تقضي العائلة يوم الجمعة بمنزلنا للحديث والسمر . واستمرت العادة حتي بعد وفاة أبي . حرصت أمي علي الا ينفرط زمام العائلة . جاء عمي يوسف الراوي وزوجته وفاطمة إبنته . تخلل الباب بهيكله العريض . وجلبابه الجاثم علي بنيانه . وملامحه الرجولية الحادة . ونظرته الشاخصة إلي أعلي . وشاربه المهندم بعناية . ثم تالته زوجته بفمها المنبسط للضحك دائماً .وجسدها المتهدل التي عاست فيه الدهون والشحوم . ثم تالتهمم فاطمة ، كانت فتاة هادئة لا تثير الإشكاليات . بحديثها المقتضب ونظرتها الخجولة المحنية إلي أسفل . لها وجه جميل بعيناها الداكنتان وفمها الصغير . وشعرها الأسود المستسرسل حتي حافة

نهديها . وأنفها الطويل المستوي . وخديها الموردين الذي يلونهم الاحمر الباهت . وجسدها التي إلتهبت مفاتنه فألهبت أنفاسي . وذكرتني بأيام لن انساها . تجلت عائلة ام حميد في جسد فاطمة إبنة عمي .. ثم تخلل الباب عمي صفوت الراوي وزوجته . نظر لي نظرة فاترة بوجهه المستدير . وملامحه الحسنة ونظراته البائسة . وهيئته الهائمة معظم الوقت . كان لصفوت الراوي نظرة حزينة مجهولة المصدر . كان الأسي يرتسم علي وجهه تماماً . كان أكثر المتأثرين بموت والدي . أكثر مني ومن اخي ومن امي ومن اخيه يوسف الراوي . كنت اشبهه كثيراً . كنت اشعر اننا شخص واحد بنفس الإنفعالات والإيماءات . بنفس طريقة الحديث والصمت الدائم . ثم عمت الجلبة في أرجاء المنزل . وتعالت اصوات إصطكاك النعال بالدرج . جاء سليمان وخليل وحسين وإبراهيم الصغير معاً الأربعة . دققت النظر لهم .تقدمهم حسين بملامحه الاجنبية وزيه الانيق وهيئته المهندمة . ومشيته المختالة . بات أخي حسين شخصية يصعب تقبلها ، بغروره المبالغ فيه ، ونظرته التي لا تري شئ في الوجود سوي صاحبها (الخواجة حسين) ذلك الإسم الذي دعوته به . كنت عندما أراه أشعر ان الإنجليز لم ينجلوا عن البلاد بعد . أما سليمان فكان قريب من شكلي بعض الشئ . بملامحه الحادة ونظرته المقتضبة . وشاربه الكثيف وشعره المستوي . كان سليمان ذا شخصية معتدلة بعض الشئ ولكني كنت أكرهه. كان له

شخصية قوية واثقة . وصوت بليغ عميق يتحدث به فيلقي الفزع في قلوب المستمعين . أما عن خليل فكان شاباً مثقفاً يجيد فنون الحوار . ويتحدث بسرعة شديدة . لديه طابع يتسم باللين . ولسان معسول يوجه دفته حين يريد . شخص طموح ولكنه لا يغالي في هذا الطموح . كان خليل ملتقي شخصياتنا جميعاً . كان يجمع كل طباعنا في قبول ورضا . ويداول بين تلك الطباع بكل عدل ..

إنصرفت من بينهم بعد فترة قصيرة .

لم يعد لي اي دور في العائلة . إنهمكت النساء في حديث سازج ممل حاولت امي جاهدة أنت تحول دفته ولكن دون جدوي . أما إخوة أبي فأخذوا يتناقشون في احوال السوق والأسعار وغيرها من الأمور التي تتعلق بالتجارة . أما أولاد عمي فقد إجتمعوا في حجرة أخي و أخذوا يتحادثون في الوضع السياسي الراهن وعن موضوعات شتي . اخذوا يتشدقون بكلمات كنت اجهلها تماماً . تغير ملتقي العائلة كثيراً بعد وفاة والدي . لم يكن الأمر هكذا ..

إنصرفت دون ان يشعر بي أي أحد . وكأني بت شبحاً لا يري بالعين . ترنحت علي الدرج منكس الرأس حزين . لم يعد لي مكان بين عائلتي .

أفتش عن شئٍ مظلم بداخلي ..أريد ان أبحر في ثنايا عقلي ..

أريد أن أجد نفسي الشاردة .. اشعر بأني علي هامش الحياة .. لا اؤثر ولا أتأثر .. أصابني الملل والضجر ، أشعر بأن حياتي قد توقفت .. أشعر بأن دوري قد إنتهي في هذه المسرحية .. لم أعد بطل تلك المسرحية .. فأخي الصغير حسين ساعدته في أن يكمل تعليمه ويصل إلي ان يلتحق بكلية الآداب قسم الفلسفة .. وتغير حاله إلي الافضل لم يعد الطفل الصغير ..بات شاباً مثقفاً محاوراً جيداً ..لديه لسان يحاور ويناقش ويجادل في كل مناحي الحياة ...وكنت أعتقد بأنه سيستحوذ علي منصب هام في المستقبل .. وإبن عمي سليمان الراوي تخرج هذا العام من الكلية الحربية وبات ظابط في الجيش .. وكذلك إبن عمي الآخر خليل الراوي فقد بات ظابطاً بالجيش المصري .. أما انا فأديت دور البطل في البداية بكل براعة ..ولكن بعد عشر سنين من بداية المسرحية ..أين انا ؟ واين هم ..؟

هم باتوا فخراً لأنفسهم ولعائلتنا كلها .. وانا اصبحت صاحب الدور الثانوي في القصة التي بدأتها انا ..هم إرتدوا ثوب العلم والثقافة والرفعة ..وانا إرتديت عباءة أبي كي أمثل دور المعلم صاحب المقهي الذي يتكلم بغلظة مع الأخرين .. هم يجلسون أمامي في المقهي يفكرون في شئون الحياة ..ويتحاورون بكل براعة ..أما انا فأعينهم ببعضٍ من حبات البن المحوج .. والقليل من الحلبة ..وبعض من أقداح الشاي التي تدير عجلة النقاش اسرع وأسهل ..

حتي الصغير حسين فبات يرافقهم في سيرهم وفي حكيهم .. أما انا فأجلس في عباءتي علي مقعدي الوثير أمارس شرب النارجيلة غير أبهٍ بحديثهم المثير ..

آراهم من خلف نوافذ المقهي .. يمرقون أمامي في خفة وسرعة .. يهرعون بقلوب شابة خضراء لا يصرفها عن الحياة شئ .. لا يدعون الحظ يتلاعب بأقدارهم .و لا يتركون للوهن مكاناً بينهم " يحيا الشباب ..تحيا الحياة "

اشعر بأني أكبرهم بعقود من العمر .. يهرولون كالسهام المارقة نحو الحياة .. أما انا فأحيا في مكان ليس لي ، وفي

ملابس ليست لي . املأ مقعداً ليس لي ... فصاحب دور البطولة أبا الحياة .. ترك ملابسه وأغراضه ومقعده وفنا ...

أما أنا فلست إلا ممثل يلعب دوره .. وعندما يخلع ملابس الشخصية ويخلو إلي فراشه يعود شاباً يافعاً .. يعود لشخصية ليست لها اي جذور ..شخصية أقرب إلي الموت ..

في كثير من الأحيان يكون السير نحو المثالية أقرب الطرق إلي النهاية ، لتكتشف في النهاية أن المثالية والحياة طريقان متوازيان لا يتلاقيان

أبداً ، فالكون لا يحتمل ان يحكمه إلهين ، إخطأ ..فإنك لست إلهاً .

سار الزمن بالجميع إلا انا . ظلت حياتي راكدة في مكانها لا تتحرك إلي الأمام . أصبحت رجلاً ولكني لم اخطو في حياتي اي خطوة حتي الآن . أشعر انني ميت يرميه الكل بنظرات الأسي . في الصغر كنت اتفوق علي أقراني وعلي أبناء عمي . فقد سبقتهم إلي الأنثي في وقت كانوا فيه أطفالاً . تخللت جسدي النشوة و شعرت بغريزة الرجل بداخلي في وقت كانوا يلهون أمام المنزل . سبقتهم إلي عالم الكبار... إلي عالم الرجال . حييت الحياة قبلهم ولمست ذاتي الشبقة . قتلت الطفل أحمد الراوي وأصبحت رجلاً بعد والدي . نزلت إلي

العمل وبات الكل ينظر لي نظرة إعجاب وإجلال . كان أبي بطلاً ولكني استحق هذا اللقب أكثر منه .

(٢)

رأيتها اليوم ..تخللت صورتها قلبي خلساً .. أصبحت آراها في كل شى أمامي .. توقف الزمن لبضع سنين عندما مرت .. تخيلت انني آخر رجل علي وجه الارض بعد الاعصار الفتاك الذي أحدثه جمالها .. كانت لطيفة وصغيرة ، عيناها بحر ليس له نهاية ، إذا نظرت فأنت غارق لا محالة ، وجهها فاتن يمس الناظر إليه .. جسدها ممشوق ..وشعرها أسود لامع مسترسل حتي حافة نهديها ..صدرها مكتنز مثير .. ترتدي فستاناً بنياً يصل إلي حافة ركبتيها ..وجزمة سوداء لامعة .

كنت أظن بأني اصبحت كهلاً لا يعرف مشاعر الحب والعشق .. لم اكن اعلم انني مازلت حياً ..أعادني بريق عيناها المعتمة إلي الحياة ..سلب لُبي وكأن الحياة قد فارقت جسدي ..

وليت أمر المقهي إلي (خميس) العامل معي ، ثم سرت خلفها في شارع المحافظة ... سارت بخطوات سريعة.. تعلقت عيناها بالسماء وكأنها تري الجنة من موقعها ..اقتربت منها اكثر عندما إنحنت يميناً إلي شارع مسجد العطارين ..ثم صعدت منزل قديم يتكون من طابقين .. وقفت بضع دقائق ثم عدت إلي مكاني وحيداً ، ولكني رأيت طيفها يسير أمامي بنفس الروعة والجمال بنفس الخجل الذي يزين وجهها . نفس الإبتسامة البسيطة التي تستحوذ علي كل شئ بداخلك .

في الأيام التالية كانت نادراً ما تمر من أمام المقهي .. وهذا ما زاد غضبي وحيرتي .. لا اعلم اين ذهبت ..هل رأتني وانا أتبعها .. هل غضبت مما فعلته ..هذا لو رأتني ولكن إن لم تراني وانا اتبعها . فلماذا لا تمر ؟!!

في اليوم التالي مرت ..في البداية لم أصدق انها امامي ..ولكني تيقنت من الأمر بعد ان فركت عيني بكلتا قبضتاي..

شعرت وكأن الأرض تنقسم من تحت قدماي ..شهقت بشدة وكاد قلبي يتوقف عن العمل .. تعثرت قدمي بالمكتب وانا أهرع خلفها .. أخرجت من جيب عباءتي عملة ورقية لم استطيع حينها ان أتبينها بالضبط ، ثم إقتربت منها حتي إلتصقت بها ..شعرت وأن قلبي قد تحرك من موقعه أسفل صدري ثم سقط علي الأرض وقامت الأقدام المتسخة بوطأه .. ناديت فيها بصوت عالي وكأني اعرفها من زمن ...

ـ يا مزميل .. يا مزمزيل ..

ـ ماذا ..من أنت .؟!

كدت أسقط مغشياً عليّ بعد ان رأيت عيناها عن قرب ..أخذت أحدق فيهما وكأن لي إبن تائه ابحث عنه بداخلهما .

ـ هذه سقطت من حقيبتك

مددت لها يدي بالعملة الورقية ، إلي أن مدت إليّ يدها في هدوء ..حينها تمكنت من ان أسمع قلبها النابض وهو يسترسل في عزف أجمل الألحان الشجية..إختلطت أنفاسي المتلهفة المشتعلة بأنفاسها الضعيفة الهادئة .. إلتقتطها بأنامل خجولة منكمشة ، ثم سارت مبتعدة بعد أن شكرتني بإبتسامة جميلة سلبتني الحياة . سارت دون ان تعلم مصير ضحيتها . هل ستداويها بنظرة خاطفة . ام ستتركها للتراب يغلفها .

عدت إلي المقهي بعد ان تركت روحي في يد من لا ترحم .. لأول مرة أري هذا الكائن من عن قرب (الانثي) مخلوق غريب ..عندما تقف امامه تشعر وكأن عقلك شاردٍ في عالمٍ آخر .. عندما يتحدث إليك تشعر وكأن قدماك تخور في بحر من الرمال المتحركة ..كلما حاولت الهرب جذبك إليه أكثر ..حتي يسلبك الحياة . ويتركك هائماً لا تقوي علي حمل جسدك.. قالها نابليون من قبل

(فتش عن المرأة) ..فالمرأة كائن غريب قادر علي أن يجعل منك طفلاً ..تركل الأرض بقدماك وتبكي وتصرخ إن تعلقت بها وهجرتك .. كائن ضعيف من الخارج ولكنه قوي من الداخل .. عقلها خرب بعض الشئ ولكنه قادر علي ان يسحرك بأفعال غير قابلة للتفسير... نظرتها قادرة علي ان تدس الجنون برأسك ..لتجعلك ضعيفاً امامها تشعر وكأنك علي حافة جبل عالي وجسدك علي شفا السقوط إلي أسفل .. يعمل العقل أمامها بجودة عشرة بالمائة من طاقته الحقيقية ..

(٣)

عرفت من أحد جيران أبيها انه يعمل محاسب بأحد الشركات ..وفي احد الأيام إنتظرته ينهي عمله ، ثم أوقفته بالشارع وطلبت منه يد كريمته التي لم أكن أعرف إسمها بعد ..كدت اقول له أريد ان أطلب يد إبنتك ذات العيون الساحرة ولكني تراجعت بطبيعة الأمر .. لم أجد منه ترحيباً كبيراً بعد ان لمحت نظرات عدم الرضا في عينه .. أعطاني ميعاد في آخر الاسبوع في الساعة السابعة مساءاً .. ثم إنصرف عني بخطوات واسعة ..وبالرغم من الشكوك التي أخذت تلوح أمامي إلا انني كنت سعيداً ..كاد قلبي يطير من السعادة ..أصبحت علي بعد خطوات قليلة من النيل بها ..أصبحت حياتي أكثر مرحاً ..أصبح لديّ شئ في هذه الحياة أعيش من أجله .

كنت أنتظر يوم المقابلة علي أحر من الجمر ..كنت متيقن أن حياتي ستتغير بعد ذلك اليوم .. سنبني حياتنا سوياً بعيداً عن تلك النسخة القديمة التي لم تقدم اي شئ ..ولكني كنت قلقاً من عدة أشياء ..لأول مرة منذ رأيتها أسأل نفسي هل ستقبل

ام لا ؟ هل ستقبلني بهذه الهيئة ..والدها رجلاً ذا مركز ، وهي أيضاً يبدو عليها التعليم و المركز الجيد .. هل ستترك العالم كله من أجلي ..لا اعتقد ذلك ...هل ستنزل بمستواها الإجتماعي إليّ ..هل ستتزوج من شخص جاهل لا يفقه في الحياة شئ ..هل سأتحمل نظرات الازدراء التي إعتلت وجه أبيها عندما رآني .. هل سأخطو فوق ما تبقي من ركام كرامتي وكبريائي بحجة الحب والعشق وغيرهما من الشعارات السازجة .. والسؤال الذي بدأ يتلاعب برأسي ..هل انا احبها بالفعل أم انا هذا الحب حب زائف . هل كان مجرد صرخة من جسد فاني ..جسد مر عليه الشباب مرور الكرام ..لم يترك له ذكري تحكي فيضحك عليها ليلقيها في غياهب ذاكرته ..او نزوة ألمته كثيراً .. او موقف جعله يدرك شئ.. او أصدقاء حينما يراهم ينسي كل شئ ..او حب مراهق إستنزف قواه ومشاعره .. لا يوجد بعقلي جانب مظلم اعبث به في الليل .. سوي صور العاريات التي شاهدتها طفلاً.. فحياتي كتاب مفتوح .. او بمعني أكثر صحة ..كتاب فارغ عجز كاتبه عن الادلاء فيه بأي شى ..كاتب مات قبل ان يسطر أفكاره علي الورق .. وبمرور الأيام سينساه الجميع ..الجميع بلا إستثناء واولهم هو .

(٤)

صعدت إلي منزلنا .. ثم دخلت إلي الحمام ، غسلت جسدي بالماء الساخن ، قبل ان احف شاربي ولحيتي بالموس ، أصبح شكلي مثير للسخرية .. مكثت بعض الوقت أفكر ماذا أرتدي ..هل أرتدي العباءة المعهودة ..الذي إعتاد جسدي النحيل عليها . ام سأبدوا مثير للسخرية أمام العروس وأهلها ..أخذت أفكر حتي تدبرت ..ولأنني لم اكن أملك بدلة وقتها لأني لم أكن من مرتدينها .. تقدمت إلي حجرة أخي الذي لم يكن في المنزل وقتها وسلبت بدلة زرقاء أنيقة .. وقميص أبيض ناصع ورباطة عنق بنية بارعة الجمال ..قفزت داخل البدلة ولمعت الطربوش بمعصم يدي ثم إنغمست بداخله ..واخذت أبحث بحجرة أخي عن جزمة أكمل بها هيئة طلبة الجامعة . حتي عثرت عليها أسفل فراشه ..غمرت نفسي ببعض من العطر الذكي ..ثم سرت في طريقي بخطوات واثقة . كنت أظن ان الجميع ينظر إليّ . بعدما تغيرت هيئتي بالطبع ..أبدو الآن وكأني شخصٌ آخر . بعد إرتداء بدلة أخي علاوة علي حلاقتي لشاربي ولحيتي الكثيفة ..سرت في شارع المحافظة متفاخراً بنفسي المحطمة . لم يعجبني شكلي الذي بدا أنيقاً وعصرياً ..كنت أغضب من نفسي لأنني كنت مسخ لأبي بعباءته الفضفاضة ونارجيلته الذي كان يلتهمها وجلسته

التي كنت احاكيها . والأن صرت مسخاً لأخي الصغير طالب الجامعة المثقف المتأنق ببذلته وطربوشه وبعض الكتب تحت الإبط إن أمكن .. أين أنا بينهم . هل مات أحمد الراوي . هل تواري تحت الأرض . كدت أصرخ في الناس الآتية من كل ناحية . هل رأي أحدكم أحمد الراوي.

لم استطع ان أكمل الطريق . لم استطع ان أكمل النهاية القاتلة .علي باب منزلها تدبرت امري ، ثم إنغمست بين الناس عائداً . سرت بعض خطوات ثم إنحدرت إلي أحد الشوارع المظلمة وأكملت السير إلي شارع شريف . وهناك جلست علي رصيف بجوار البنك المركزي . حللت رباطة عنقي ، ثم قمت وأكملت السير إلي اللامكان . لا اعلم إلي أين أنا ذاهب . مشيت طويلاً حتي خارت ركبتاي . جلست علي رصيف في ميدان القناصل في المنشية . لم أعلم كم من الوقت مشيت . كاد قلبي يتوقف وقدماي تذوبان . حينها شعرت أني أترنح . امشي كمن حل به الجنون . بمرور الوقت لم أتبين شيئاً أمامي . شعرت أن جسدي قد اصابه الخمول . شعرت بأن قلبي قد شرع في الارتخاء . تهدلت اعصابي وسالت . شعرت بأن أطرافي قد

تسللت لها البرودة . وبالفعل سقطت مغشياً عليّ . أخر شئ رأته عيني كانت نفسي التي تحطمت وباتت هباءاً .

بعد فترة لا اعلم مقدارها .. إلتقطت أذناي صوت حقيبة جلدية تغلق بشدة ، وصوت همهمات بجواري ، وصوت أمي علي ما اعتقد . كانت ترتل بعض الآيات القرأنية وهي تبكي . فتحت عيني في هدوء ، لأجد الكل حولي ، أمي واخي حسين وعمي يوسف الراوي وعمي الآخر صفوت الراوي وزوجاتهم ، وأولاد عمي سليمان وخليل وفاطمة . يبدو أني إستيقظت لقلة الأكسجين بالحجرة . تطلعت وجوههم المضطربة التي إعتلاها الخوف عليّ . إحتضنتني أمي في لهفة ، وجلس أخي علي حافة الفراش . تطلعت إلي وجه فاطمة القلق . لأول مرة أجد أحداً يحنوا عليّ . لأول مرة آراهم خائفين لهذا الحد . إختلست بعض النظرات إلي جسدها الممشوق . فوجدته أية في الجمال . جسدها منحوت ببراعة .. بالفعل لم تحصل علي تعليم جيد و عزفت عنه منذ الصغر .. ولكن رغم ذلك كانت بسيطة ، تتكلم بأدب جم ، نقية لا تعاني من شئ . عندما أحست بنظراتي الجريئة تلتهم جسدها خجلت بعض الشئ ، وتورات بجوار أمها . وأمسكت بتلابيب عبدالله إبن عمي صفوت .

الطفل الذي قارب علي إتمام العقد الأول من عمره ، اوقفته أمامها حتي توقف سير عيني الجائعة ، تعمدت أن أتمادي في النظر إليها حتي يصيبها الخجل ويتورد وجهها ويلونه الأحمر الملتهب . لم اسمع ما شرعوا في قوله من مجاملات وكلام من هذا القبيل . كنت كائناً بكوكب آخر . كوكب يدعي كوكب فاطمة يوسف الراوي .

- ماذا اصابك يا اخي ..

قالها حسين بلغة جافة بعض الشئ

قصيت عليه ما حدث . دون ان أُفصح له عن سر ذهابي إلي هناك . ثم تفوه ضاحكاً :

-هل تعلم اني لم أعرفك في البداية .. كنت أسير انا وخليل وسليمان في شارع شريف. كان الظلام شديد والشارع خالي تماماً ، ثم رأينا شابا يرتدي بدلة كحلية مرتمياً علي الأرض . فحملناه بسرعة علي أكتافنا وآتينا به إلي هنا وعندما تفحصنا الوجه رأينا أنه انت . إندهشت كثيراً . لأول مرة في عمري أراك ترتدي البدلة يا أخي ..!

(٤)

بعدما إنصرف الجميع .. قفزت من فراشي بسرعة . ثم خرجت من تلك البدلة الآنيقة ونحيتها جانباً . ثم إلتقطت عباءتي وإرتديتها .. أظلمت الحجرة وهرعت إلي النافذة لأفتح أبوابها بعدما قل الاكسجين بجسدي ..أخرجت رأسي خارج النافذة الفارهة ، و أشحت بنظري إلي أسفل ، حتي رأيتها وهي تسير بجانب أمها في الشارع . رأيتها تجذب قلبي بشدة . رأيتها تسطو علي كل شئ بداخلي . رأيتها تذوب في الظلام بكل هدوء وطاعة . سارت وتركتني أعبث بنفسي .

في اليوم التالي جاء عمي يوسف الراوي كي يطمئن علي صحتي . إستأذن أمي بالدخول . ثم دخل وعلي وجهه إبتسامة هادئة :

- كيف حالك الآن يا أحمد ..؟

شعرت وكأن قلبه قد توقف عن العمل وأصبح بالياً . عندما فاجأته بطلب الزواج من فاطمة . سمعت قلبه يطرق بشدة . قبل ان يتفوه ببنت شفة . دخلت هي في يد أخيها سليمان . إعتدلت في جلستي حتي لا أثير الشفقة في نفسها تجاهي . عندما بادرها أباها بطلبي . لم أشعر بالحياة في جسدي .

شعرت أني قد فنيت ، أو أن الزمن قد توقف في هذه الحجرة ... إحتل القلق والاضطراب أراضي واسعة من وجهها. رغم الرياح الهادئة التي كانت تتطاير في هذا اليوم إلا ان العرق قد غمر جبهتي . شعرت بعد ثواني أني أغرق في بحر من العرق . كاد قلبي يتمزق . أصبحت علي شفا الهاوية . أحتاج إلي هزة صغيرة حتي أسقط . حتي أكتب كلمة النهاية علي هذه القصة . حتي أسدل الستار علي هذه المسرحية الكئيبة . حتي امحو إسمي من العالم . حتي ألقي بنفسي في غياهب النسيان .

أخذت أحدق فيها حتي إلتهمتها بداخلي . شعرت وكأن عيني ستخرج من محجريها لتسقط علي الأرض . تماسكت لثواني إضافية . كدت أتوسل إليها . كدت أسقط تحت قدماها . كدت أسجد لغير الله . كدت أفصح لها عن شخصي الحقيقي . كدت اقول لها اني لست مجرد شاباً في مقتبل العمر يطلب يد فتاة للزواج . كدت أصرخ فيها بالحقيقة بأني لست إلا شخص فاني قد غطاه التراب منذ عمر . شخص يمثل أنه مازال حياً . شخص عاجز علي الإنغماس بينكم . شخص ليس له غد . شخص لن تجدي الحياة معه في شئ . شخص سيقتلكي مللاً . شاب يجهل أحلام الشباب . شاب لا يشعر بجدوته في الحياة .

شاب ضاع عمره في تمثيل دور والده . ضاع شبابه دون ان ينعيه بكلمة واحدة . ألقي بنفسه في مقهي والده ونسي أنه مازال يافعاً نسي بأن أيام الشباب مازالت باقية . بينما كان العالم بالخارج يدور بسرعة السهم .

شعرت برجفة بسيطة تتسلل إلي قلبي عندما إبتسمت إبتسامة بسيطة واومأت برأسها في خجل . شعرت بأن هناك نسر أفريقي قد هبط إلي حجرتي ، وإلتقطني من تلابيبي بمخالبه الحادة وطار ، طار إلي اللامكان . وقف أخيها مشدوهاً ببذلته العسكرية التي كانت تسير سخطي . دخلت أمي بعدما سمعت كل شئ من الخارج وأصدرت زغرودة نالت من أذني الكثير والكثير .

★★★

لا تطفئ بداخلك شيئاً قد تحتاجه فيما بعد . لا ترتدي قناع من مات كل شى بداخله . لا توهم نفسك بأنك هكذا ستكون حراً بعيداً عن قوانين البشر التقليدية الرتيبة . عش كما شئت

بحريتك . ولكن تحرك داخل إطار الحياة . لن تقسم الهزيمة علي إثنان . فأنت وحدك من سيتجرع الهزيمة . انت وحدك .

وهذا الوهم ..الذي كان يشبع غرورك في الماضي . سيقضي عليك الآن بلا رحمة . سيكون التصريح الذي سيخرجك من الدنيا بلا رجعة .

إنتهي زفافنا المتواضع الذي أقيم في منزل عمي يوسف الراوي المجاور لمنزلنا .. كانت فاطمة مثل الملاك في الفستان الأبيض الناصع .. الكل كان سعيد باستثناء أخيها سليمان الذي كان متجهماً بعض الشئ .. ولكنه بعد ضغط من الجميع أمسك بالعود وبدأ يشدو في آذان الجميع .. كان سليمان صاحب موهبة بارعة في العزف والغناء .. جلسنا نتسامر جميعنا في منزل عمي حتي بعد منتصف الليل .. حتي إنتهي الحفل وأخذت فاطمة في يدي اليمني ووالدتي في اليد اليسري وإتجهنا إلي منزلنا .. ظهر المنزل في أبدع صورة ، تسللنا إلي المنزل علي صوت زغاريد الجيران وأمي و الست سنية زوجة عمي يوسف و ثريا زوجة عمي صفوت . خلونا إلي حجرتنا قبل ان أودع أمي قبلة دافئة علي جبهتها ..

تخللت فاطمة الحجرة في خجل إعتلي وجهها . إحمرت وجنتاها بشدة عندما أغلقت الباب . إقتربت منها ثم وضعت يدي علي كتفها في رفق . إنكمشت في خجل ثم هرعت إلي ركن بعيد بالحجرة ، ثم خرجت من الحجرة بعدما نامت أمي . جذبت بيدي مقعد وإرتميت فوقه يحين وقت الدخول . كان الوقت ثقيل لا يمر . كان قلبي يخفق بشدة ولكني إصطنعت التماسك . مر وقتٍ طويل لم أستطع إحصاءه . كاد السبات يغلبني ولكني تماسكت حتي لا يحدث مالا يحمد عقباه . طرقت الباب وانتظرت بضع ثواني حتي سمعتها تسعل . تخللت الحجرة في هدوء حتي لا اوذي أعصابها . أشحت بنظري لأجدها علي حافة الفراش ملتفة حول نفسها في خجل . ترتدي زي شبه عاري . أذابني جسدها ، خارت أعصابي لدرجة لم أتبينها . تجمد الدم في عروقي . جحظت عيناي حتي كادت تسقط . إشتعلت النار بداخلي فأضرمت الخراب بكل شئ . أخذت ألتهم جسدها نظراً فإشتد خجلها واحمرت وجنتاها . كانت تطوق شعرها بشئ بلاستيكي جعله ينتصب أعلي رأسها . كدت أسقط ميتاً عندما إنتصبت أمامي قبل ان تحل شعرها الناعم اللامع ...

إقتربت منها في هدوء ..

إبتسمت في خجل يشوبه دلال أنثوي مثير ..

مسحت علي شعرها في هدوء ..

أفقدتني عيناها الحياة ..

سلبتني رائحة شعرها النقية نعمة الإحساس بالمكان ..

جذبتها إليّ في رفق وشعرت بجسدها يخطو من فوق السياج المحاط به . أحسست بأعصابها ترتخي . حتي ذاب جسدها تماماً تاركاً لي أمر المبادرة

أصبحت علي بعد خطوات من الجنة الموسعة أو الجحيم الموحش لا أعلم ...

إرتكنت إلي أسفل فأعتليتها واغرقتها بقبلات حارة بادلتني بمثلها اقل حراراة . رأيت الفتاة المثففة التي رأيتها في الشارع علي فراش فاطمة . رأيت أم حميد وبناتها كل واحدة تلو الأخري . لا أدري من التي أعتليها الآن . ولكن ليكن ما يكن . لا يهمني إذا تناوبت كل نساء الكون علي فراش فاطمة... لا يهم إذا تصورت أمي علي فراش فاطمة . فالكل من نسل حوا حتي اشبع غريزتي حتي الثمالة و تسري النشوي في كل جسدي ...

لا تتميز المرأة عن غيرها إلا بقدرتها علي إشباع رغبة الرجل . وهذا الجانب الذي اعتقد ان فاطمة ستفشل فيه فشل زريع .

سليمان الراوي

تباً لعلوية العاهرة ...

تباً لمصطفي الإبن النجس ..

تباً لأحمد الراوي القواد المجنون ...

تباً لجمال عبد الناصر الوغد ..

تباً لشعب عبد جمال عبد الناصر ..

تباً لشعب ركع لغير الله ..

تباً للظباط الأحرار....

تباً للثورة ..

تباً لشعب أمن بالثورة ..

تباً لشعب عبد الثورة ..

اللعنة علي كل شئ . اللعنة نصيب كل من خان . اللعنة علي كل من روج لبضائع فاسدة . اللعنة علي جدران السجن التي أفقدتني كل ما هو طيب داخلي . اللعنة علي جسدي البالي الذي وطأته ايام التعذيب حتي اصبح غير صالح للحياة .

فالتحل اللعنة علي وجههي الشاحب وعلي رائحتي العفنة .
اللعنة علي أناملي المرتعشة .

فلتقام الأفراح في كل الأرجاء إحتفالاً بتحطيمي ولتطرق الطبول وتغني الأهازيج ويدور نخب الإنتقام علي الجميع .
فالتتجرعوا الكؤوس الفاخرة وتنتشوا .

خرجت من باب السجن الضخم و أطرقت بنظري بعيداً . لم يوجد في إنتظاري أحد سوي رياح الخريف الهادرة التي إستنشقت أديمها وملئت به صدري . لم يأتي أهلي لاستقبالي أما بالنسبة لعلوية زوجتي فقد هجرت البيت بمجرد أن سجنت .فقد عرفت ذلك بعدما اخبرني حسين الراوي ذلك الأمر في الزيارة الوحيدة التي آتي إليّ فيها بصحبة إبنته هدي .
أخبرني كذلك أنهم لم يعرفوا عنها شئ ولا عن إبني مصطفي بعد ذلك اليوم .

تطلعت إلي السماء بعين شبقة متلهفة ، فلم اراها منذ زمن طويل . تمعنت في المارة في الشارع الذي بات شكلهم لا

يختلف كثيراً عن رفقائي في الزنازن . الحزن علي الوجوه يهتف بكل ما أوتي من قوة . والجهل المستفحل يلوح من العيون . ورائحة الفقر والجوع تفوح من كل الأرجاء . الموت يسير علي أقدام . باتوا كتل بشرية مروضة ترسم الفوضي في كل مكان . الكل يسير بعيون معدومة البريق نحو النهاية .. نحو الجحيم ..وليكن يوم القيامة غداً ليحاسب عبد الناصر علي ما أقترف في حق تلك الكتل البشرية مسلوبة الأمل والهوية ..

تباً لجمال عبد الناصر...

تباً لشعب عبد جمال عبد الناصر ...

تباً لشعب ركع لغير الله ...

(٢)

إلتقطتني عربة مدججة بالبشر قبل أن أذرف دموع الحسرة وخيبة الأمل .. العربة تكاد تنفجر من كم الناس . إرتكنت إلي عصا معدنية معلقة بسقف العربة . ووقفت أترنح وألتحم بالأجساد المغمورة بالعرق . أخذت العيون تلتهمني بنظرات حادة غريبة . لا اعلم هل يتفحصوني هكذا بسبب رائحتي القذرة التي أذقتها لجميع الركاب ام لشئ آخر يتعلق بعبد

الناصر . أعطيت الأجرة لعامل العربة الذي تفحصني بوجه غاضب . بينما كنت أتابع مشهد غريب جذب إنتباهي واخرجني من شرودي . كانت هناك فتاة ذات ملابس مهترئة تشبه ملابسي تماماً . تحركت الفتاة بكل رشاقة بين الأجساد الملتحمة وأخذت تجهز علي نقود كل واحد تلو الآخر . تدس يدها في الجيوب الفارغة علي ما اعتقد . وتشق حقائب النساء في خفة وبراعة . ثم نزلت الفتاة من العربة دون ان يلتفت إلي فعلتها احدٌ غيري . وقفت العربة وشرعت الفتاة في الإنصراف . بينما كان العامل وبعض من الركاب الذين حذوا حذوه منهمكين في نظرات ساخطة أرجفت قلبي . قال العامل بصوت غليظ يشوبه الحزن :

- لا اعلم هل أفتك بك في التو .. ام أقبل رأسك ..

- انزلني ..

من الواضح ان الأمر بالفعل كان يتعلق بعبد الناصر .. نزلت من العربة وسرت خلف الفتاة . سارت بخطوات حثيثة بعد تلاشي العربة . كانت فتاة في اوائل العشرين سمراء اللون . دميمة الشكل بأنفها الغليظ وشعرها الاشعث وملامحها الغير متناسقة ، علاوة علي قامتها القصيرة وجسدها النحيل الخالي تماماً من أي مظهر من مظاهر الأنوثة إلا من صدر صغير منطوي أسفل ثوب متسخ قديم . عندما أقتربت خطوات قليلة إستطعت ان أري الدهاليز الضيقة المتعرجة التي تفترش كعب

قدمها العفن المهمل البارز خارج نعلها الممزق البالي سنتيمترات قليلة ..أقتربت منها وأمسكت بمعصم يدها التي غمرته البقع الداكنة ..

إستدعيت ذاكرة عملي كظابط و إستحضرت بعض من الهيبة والشموخ الزائف الغير مناسب لهيئتي المثيرة للشفقة . وقلت لها في صوت صارم :

- كم جنيتي من السرقات هذا اليوم ..؟

إنعقد لسانها وتراكبت الحروف فوق بعضها . وتلاحقت أنفاسها و إمتزجت رائحتنا القذرة في كل ود وقبول .. خارت عزيمتها وتحولت إلي قطعة عجين لينة في يدي بعدما هددتها بإبلاغ الشرطة . قصت عليّ حكايتها من البداية . وزوج امها الذي أرغمها علي هذا العمل . كانت مسكينة ضحية لرجل غليظ معدوم الأمانة والشرف . سرنا علي الكورنيش حتي أنهكنا السير وتجاذبنا أطراف الحديث حتي إقترحت عليها ان اساعدها في الفرار من زوج أمها . وافقت بكل سهولة وقبول . عبرنا الطريق وانعطفنا إلي أحد الأزقة . لم نري في الظلام القاتم الذي إحتوي كل شئ سوي ضوء منبعث من أمام احد المباني . إقتربنا فوجدناها لوكاندة بسيطة تدعي (لوكاندة إسكندرية) . كانت عبارة عن منزل عتيق من طابقين . وفي الأسفل هناك ردهة صغيرة مضاءة بالكهرباء يتوسطها رجل غليظ يبدو كالأشباح يجلس أمام مكتب خشبي عالي لا يظهر

من جسده سوي شعره الأبيض المتناثر . تخللنا اللوكاندة وتقدمنا بضع خطوات . إنتصبنا للحظات حتي أستيقظ الرجل من قيلولته تحت وطأة شذانا القذر الذي راج في كل اركان اللوكاندة . نهض الرجل من جلسته وفرك عينه بكلتا قبضتاه . كاد الجنون يصيبني عندما رأيته . كدت اسقط صريعاً من هول المفاجأة . لم اكن اعلم ماذا جاء بأحمد الراوي إلي هنا ..!

قلت له في صوت متحشرج فيه حنين للماضي :

- كيف حالك

ضحك في صمت لم يطل كثيراً . ثم إقطتع قهقهته فجأة قائلاً :

- سليمان الراوي ... ماذا جاء بك إلي لوكاندتي أيها الخائن ..هل ضاقت عليك الأزقة الموحشة و الشوارع الضحلة المليئة بالمجرمين أمثالك .

اشتد غضبي وحنقي من تلك الكلمات . وعندما هممت في الرد علي حديثه الغليظ إستدار علي صورة عبد الناصر المعلقة خلفه وأخذ يهمهم بكلمات مبهمة في صمت وخشوع أثار حزني وحسرتي . تقدمتني شوقية خطوتان وعندما إستدار نحونا إستقبلته بنظرة صارمة لم تغير كثيراً من نظراته التي يشوبها الجنون باللامبالاة قالت له في حزم :

- نريد حجرة ..!

إلتقط المفتاح من طاولة خشبية معلقة بجواره ثم منحه لشوقية وهو يلتهمني بنظرات السخرية التي كادت تفلت زمامي تماماً . يا لك من شيطان ماجن . يا لها من لوكاندة فتحت إليّ طريق إلي الجحيم . ثم هتف علي مساعده الذي يدعي (بدوي) وأمره بأخذنا إلي الحجرة رقم خمسة . تقدمنا عامل اللوكاندة و صعدنا الدرج العتيق الذي يغطيه الغبار القذر . تخللنا الطابق الأول ووجدنا أنفسنا في بهو متوسط الطول ثم إتجهنا يميناً وسرنا في ممر طويل تتناثر فيه الحجرات المغلقة علي ساكنيها . وينتهي الممر بنافذة زجاجية شاهقة تكسوها عتمة الليل . فتح لنا العامل باب أحد الحجرات ثم افسح لنا الطريق للدخول . أولجت شوقية المفتاح في الباب وأحكمت غلقه من الداخل . بينما إتجهت انا نحو النافذة ودنوت بخصري النحيل .. تطلعت شارع شريف المظلم لم يكن هناك اي شخص بالشارع . في هذه اللحظة كنت قد وصلت إلي قمة حيرتي . كنت اتساءل لماذا يلقبني إبن عمي بالخائن ..؟ لماذا أراد عامل العربة أن يفتك بي بمجرد ان رآني أمامه . ماذا قدم عبد الناصر فلوثته أنا . ماذا أضعته عليكم . هل كان هناك باب يودي إلي الجنة فأغلقته عليكم . ام ايقظتكم من أحلام هانئة كنتم ستجنون فيها ثمار الرخاء . إستيقظوا من هلاوثكم فسليمان الراوي لم يمسسكم بسوء . توقفوا عن نوبات الغضب او وجهوها نحو الهدف .

إجمع قبضتك وصوبها نحو الجاني . لم يكن سليمان الراوي سوي مجنون حاول ان يضاهي حاكم يعبده شعبه..

إستدرت بوجههي الهائم الذي إزداد شحوباً وأطرقت بنظري نحو شوقية التي كانت متكورة حول نفسها أعلي الفراش . كانت عارية تماماً كما ولدتها أمها . شعرت بنظرات الشفقة تعلو وجهها حينما شرعت في خلع ملابسي . لحظتها تذكرات سنوات السجن . ظن جسدي بعدما أزحت من فوقه الملابس بأنه يستعد للتعذيب . يستعد لأن تتهاوي فوقه ضربات السياط المتتالية ، وأن يتناوب الحراس علي وطأ كرامته ورجولته دون رحمة . سقطت دموعي غزيرة بينما ضمتني شوقية إلي جسدها النحيل الذي جعلني أتقزز . خلعت ملابسي بالكامل قبل أن أطفئ إضاءة الحجرة التي إشتدت ظلمتها بعدما إنقطعت الكهرباء ..ثم .....

(٣)

عندما عادت الكهرباء إلي المكان . وعاد الضوء إلي الممر الذي يفضي إلي حجرات اللوكاندة .. إرتجت اللوكاندة وإصطكت ابوابها . تهاوت علي أذني صرخات شديدة متتالية بينما كنت أعتلي شوقية وأولج جسدي داخل جسدها العفن .

كانت تتأوه بصوت متحشرج ولكني برغم ذلك أنصت إلي الصوت الذي تعالي بالخارج . قمت من فوقها ولففت خصري بملاءة بيضاء كانت علي الفراش ثم عجلت في الخروج . وهرعت شوقية من خلفي في نفس زيي ونفس هيئتي بالملاءة البيضاء . وبمجرد ان فتحت الباب وجدت مشهداً مريعاً . وجدت رجلاً خمسيني يفترش الأرض مغشياً عليه بجسده المترهل العاري تماماً . بينما كان الجميع يصطف من حوله بقلوب مرتجفة من هول المشهد . وقف أحمد الراوي بنفس نظراته الغير آبهة بأي شئ . وقف مشدوهاً باهتاً علي وجهه ضحكة يريد ان يصرخ بها في العدم . وإنتصب من خلفه شاب وفتاة . تفحصت الفتاة بنظرات ثاقبة بادلتني بمثلها . شعرت أني اعرفها او رأيتها من قبل . فتشت في ذاكرتي المهترءة عن صورة تلك الفتاة . وبالرغم من المساحيق التي عاست في وجهها وشكلها الذي تغير تماماً إلا أني إستحضرت صورتها . وتذكرت إسمها وقلته همساً عندما لفظه أحمد الراوي وهو يتفحص وجهها مندهشاً

(هدي) باتت هدي عاهرة في ذلك العمر. ماذا حل بعائلتنا ..؟

ولكني أدركت ماذا حل بها عندما رميت بنظري بجانب جثة الكهل الملقي علي الأرض ووجدت علوية زوجتي التي فرت هاربة بمجرد أن سجنت . كانت واقفة شاحبة الوجه تتفحصني

بنظرات هائمة مندهشة وكأنها كانت لا تصدق انها تراني أمامها . تفحصت جسدها العاري الذي كنت أفتقده وأشتاق إليه فترة سجني . هذا الشوق الذي من المؤكد انه قد إزداد أضعافاً بعدما جامعت شوقية .. تهدل وجهها وشاخ ولكنه لم ينسي ماضيه .

في الماضي كنت بمجرد أن انظر إليها أشعر بأن قدمي تسحب إلي عالم آخر بعيد عن ذلك العالم الصاخب . صوتها الشجي العذب كان يلتقطني من دنياي . باتت علوية نسخة مشوهة من علوية هانم التي عرفتها منذ ان كانت طفلة صغيرة . صرخت فيها بكل ما أوتيت من قوة :

- أين إبني يا علوية ..؟!

لم تنبث بكلمة فقد إستحالت إلي تمثال لا يري ولا يتكلم ولا يومئ بأي حركة . ولكنها قطعت جمود جسدها بأن وضعت يدها الناعمة البيضاء علي كتف الشاب العاري تماماً ، الذي كان يقف بجانبها منكس الرأس . بعد لحظات أدركت ما ترمي إليه ، فاقتربت من الشاب حتي إلتصقت به ثم عدلت من وجهه ووضعته أمام عيني . وبمجرد أن نظرت إليه تذكرت إبني مصطفي في عامه الاول . نفس النظرة الهادئة التي تسكن السلام في قلبك إذا نظرت إليه . نفس الملامح الملائكية التي أخذها عن أمه كاملة . الوجه الوسيم بالشعر البني اللامع المسترسل حتي حاجبيه . وعيناه الزرقتان زرقة السماء

الصافية . وأنفه المستوي وبشرته البيضاء الخالية مما قد يشوبها . والفم الصغير الذي تتواري خلفه أسنان بيضاء متساوية .عانقته وانا أصرخ باكياً . لا أصدق ان زوجتي قد باتت عاهرة وإبني أيضاً قد لطخه الدنس . حولت نظري إلي الجانب الآخر . لم أصدق حينما رأيت خليل الراوي يقف عارياً وهو يتفحص جثة الكهل الملقي علي الأرض . أين الثورة الآن لكي تري رجالها وهم عاريين بدون ان تسترهم هتافاتهم التي كانوا يتشدقون بها كالأنعام . وأفعالهم التي كانوا يحاكون بها القردة ..

أمسكت بتلابيب مصطفي عائداً إلي حجرتي وتابعتني شوقية حتي نرتدي ملابسنا و نغادر هذا المكان . بمجرد أن إستدرت عائداً رأيت أخر شخص كنت أظن أني سأجده هنا . وهذا بالطبع كان إعتقاد الجميع . سار إبراهيم الراوي خارجاً من أحد الحجرات هائماً . يترنح بين الجدران فاقداً توازنه . ينظر إلي اللاشئ وكأن الجنون قد أصاب عقله . لم يصدق أحداً من الموجودين ما يراه . خرج ببذلته العسكرية التي فاحت منها رائحة الدم ممسكاً بها في يده تاركاً للعدم مهمة ستر جسده الملئ بالندبات والجروح . خرج وهو يجر بذلته علي أرض اللوكاندة وسط دهشة الجميع ، ثم هبط الدرج العتيق وسار دون أن ينطق بشئ .

★★★

لم يستطيع الدهر أن يمحي من رأسي تلك الذكري التي كلما تذكرتها شعرت بأني في أشد الحاجة لأن أعود طفلاً صغيراً . كنت في العاشرة من عمري حينما أصطحبني خالي معه لسرايا الصاوي باشا كي يغني ويعزف لفريد باشا الصاوي وضيوفه من البشوات والأعيان . كان خالي عزت عبد الحي يعزف العود ببراعة شديدة . كان له صوت عذب وساحر يحاكي به كل المطربين العظام . تخلل خالي باب السرايا الضخم في كل هدوء غير أبه بمظاهر الترف التي إعترت المكان كله . دخل ببذلته الأنيقة والمعطف الصوفي الأسود متأبطاً ذراعي التي حملت العود . إستقبله فريد باشا الصاوي وضيوفه بحفاوة وأخذوا يدللوني . بادلهم خالي الترحاب بوجهه البشوش وهيئته الهادئة . في حديقة السرايا جلست فتاة بارعة الجمال بفستانها الذهبي الذي جعلها تزهو أمام عيني . تركت خالي كي يتبادل المجاملات المملة واتجهت نحو الفتاة التي سلبت لبي لمجرد رؤيتها . وقفت بجوارها وكأني أعرفها منذ زمنٍ بعيد . إبتسمت لها بسمة هادئة فبادلتني بمثلها قائلة بصوت عذب :

- من انت ..؟

قلت لها إسمي وأعلمتها أنني وخالي احد ضيوف فريد باشا . رحبت بي بنظرة ودودة . توقفت الكلمات علي لساني لم أستطع الحديث في حضرتها . كانت جميلة بشعرها البني الطويل وملامحها المنمقة وكأن رسام قد رسمها في أحد لوحاته . وعيناها الزرقتان الساحرتان . قالت لي ضاحكة :

- هل تجيد العزف والغناء مثل خالك .

- لم أجرب من قبل .. ولكني سأسعي جاهداً .

صمتت واخذت تجول بنظراتها ثم جذبتني من يدي وهرعت نحو باب السرايا . أودعت خالي العود وأنا أعدو خلف الفتاة . ثم إنغمست بين الأثرياء والبشوات الذين إصطفوا بجوار باب السرايا في وسط أجواء من الترف والأنوار الساطعة المعلقة في كل مكان والطعام والشراب الذي لا ينتهي . تخللنا باب السرايا كأننا نسمات هواء رطبة حلت علي المكان . اخذنا نعدو إلي الطابق الأول حتي وصلنا إلي الشرفة المطلة علي الحفل ، والتي أرتني منها الفتاة منظر البحر الذي بدي في تلك الليلة في أوج جماله . سألتها عن إسمها

فأجابت باسمة :

- إسمي علوية ..انا إبنة فريد باشا .

أخذت أتطلع إلي عينيها الجميلتين وانا أتصبب عرقاً ويغمرني الخجل . أخذ خالي يشدو في الأسفل بصوت ساحر وكأنه

يشعر بما يجول بداخلي في تلك اللحظة . شعرت أنني الذي أغني وليس خالي . تجولنا في السرايا لفترة طويلة ثم هبطنا إلي أسفل وأجلستني بجابنها وهي تعزف علي البيانو . كنت أشعر وكأن انامِلها تضغط علي قلبي بدلاً من أجزاء البيانو . تخلل قلبي شعور غريب أشعر به لأول مرة . ثم بعد ان أنتهت من العزف علي البيانو بتصفيق حاد مني إصطحبتني معها كي نتجول في حديقة السرايا . كانت حديقة فسيحة وارفة بالأشجار والنخيل . جلسنا في الحديقة حتي هتف عليّ خالي ، فودعتها في حزن وكأني سأغادر الحياة في تلك اللحظة . خرجت من السرايا بصحبة خالي ولكني اودعت قلبي بالداخل قبل ان أنصرف . بعد فترة قصيرة ذهبت

وحدي إلي سرايا الصاوي باشا . ولكن البواب صرفني من علي البوابة بعدما أخبرني أن علوية قد سافرت خارج البلاد ومن الممكن ألا تعود ثانياً . عدت منهزماً تراوضني حسرات الدنيا . كان حلماً جميلاً ولكنه إنتهي سريعاً بدون أي مقدمات . كاد البكاء يغلبني ولكني تماسكت . كنت أساءل نفسي هل شعرت بما إختلجت به نفسي أم لا ..؟

لا أعلم .. ولكننا كنا أطفالاً أنقياء نداعب الحياة بأنامل رقيقة ناعمة .

★★★

مرت السنوات وانخرطت في حياتي ونسيت تقريباً الأمر كله برمته . ولكني بالطبع لم أنسي صاحبة العيون الزرقاء الساحرة . في تلك الفترة كنت قد

تخرجت من الكلية الحربية وأصبحت ظابطاً في الجيش . وإبن عمي خليل الراوي أيضاً كان قد تخرج وأصبح ظابطاً في الجيش ولكن العام الماضي . منذ الطفولة وانا وحسين الراوي وخليل الراوي أصدقاء مقربين . بحكم التقارب في العمر والتفكير . كان نلتقي دائماً في مقهي الراوي نتجاذب أطراف الحديث في شتي مناحي الحياة . كنت لبقاً ولدي صوت جهوري ولكني كنت أقلهم ثقافة . كان حسين الراوي قارئاً نهماً ومحاوراً عتيد في كل الموضوعات . وكذلك خليل فكان مثقفاً وقارئاً شديد الإطلاع . أما انا فكنت الأقل علماً واتطلاعاً . كنت أشاركهم حديثهم السياسي علي إستحياء . كنت أشبه بأحمد الراوي الذي كان يطاردنا بنظراته البلهاء كلما جلسنا وتحادثنا معاً . بالرغم من أن حسين كان هو الأخ الأصغر لأحمد الراوي ولكنهم كانا صورتان بعيدتان كل البعد عن بعضهما . كان أحمد الراوي يشبهني كثيراً من حيث الشكل والهيئة والمستوي الثقافي بالرغم من تميزي في هذا الأمر بعض الشئ عنه ، فهو قد عزف عن التعليم منذ الصغر وعمل بالمقهي بعد وفاة عمي أمين الراوي أما انا فقد أكملته حتي وصلت إلي للنهاية بإلتحاقي بالكلية الحربية ومن ثم تخرجي منها . كان حسين الراوي ذا ملامح أجنبية بعينه الزرقاء

وشعره البني المتلألأ وقسماته الحسنة المنحوتة بدقة . أما أحمد الراوي فكان ذا أنف غليظ وشعر خشن وشارب كثيف ورأس طويل تملأه الخطوط العرضية التي نُحتت بفعل الزمن .

(٢)

في أحد الأيام أعطاني خليل الراوي عدة كتب ونصحني بمحاولة قراءتها . كانت اغلبها تتناول موضوعات سياسية لعدة كتاب . تحفزت جذوتي وحاولت في أول كتاب ، ووجدت معاناة شديدة في ذلك الأمر . أنهيت أول كتاب بعد شهر تقريباً وناقشني خليل الراوي أفكار الكتاب والمواقع الهامة فيه . توالت بعد ذلك الكتب التي كان يمدني بها خليل الراوي وحسين في بعض الأحيان . قرأت العديد من الكتب في تلك الفترة بفضل خليل الراوي . وفي أحد الأيام إصطحبني خليل معه من دون حسين إلي بيت أحد أصدقاءه . صعدنا بيت عتيق في شارع سعد زغلول بمحطة الرمل . وإستقبلنا صديق خليل في حذر كان غير مفهوم بالنسبالي . عندما دخلنا جذبني خليل إلي الداخل ودخلنا حجرة يتوسطها منضدة دائرية الشكل يجلس حولها أربع أفراد بالاضافة إلي صديق خليل الذي فتح

لنا الباب . جلسنا حول المنضدة التي كانت غير مهندمة بالكتب الملقاة بصورة عشوائية والاوراق المتناثرة من حولنا ، واقداح الشاي والقهوة التي تخللت أنفي بسهولة بالإضافة إلي دخان التبغ الكثيف الذي إحتوي الحجرة كلها . كان الإجتماع في تلك الشقة أشبه بلقاء فوق سطح القمر حيث تعلونا السحب الكثيفة في كل مكان . إتخذ الحديث منحي شرس لم أفهم غرضه . تسلم خليل من أحدهم لفافة كبيرة من الورق إلتقطها في حماس ثم أودعها مكان بجانبه . إنتهي الإجتماع ولازلت لا أفهم بواطن الأمر . كنت أظنه نقاش سياسي عابر كالذي نقوم به نحن في المقهي . لا أنفي أن منذ البداية قد إنتابني الخوف من تلك النغمة التي يتحدثون بها هؤلاء الشباب ولكني إنتظرت حتي النهاية . صارحني خليل ان هناك تنظيم سري داخل الجيش ينوي أن يثور علي الملك الفاسد هو أحد أعضاءه . واقترح عليّ أن أنضم لهم ولكني صرخت فيه رافضاً كنت غاضباً من أنه لم يخبرني بحقيقة الأمر من البداية . ولكن بعد ذلك قلت لما لا . كان مشهد الشباب وهم يتحدثون بكل حماس ووطنية قد كان له مفعول السحر عليّ . لم أكن وطنياً بالصورة الملحوظة ولكن الأمر قد نال إعجابي . وبالفعل إلي التنظيم وتوطدت بعد ذلك علاقتي بخليل الراوي كثيراً . فنحن أصدقاء منذ الصغر واولاد عم وجيران في منزل واحد وتجمعنا طبيعة العمل وتتشابه بيننا الأفكار و وجهات النظر في معظم مناحي الحياة . وباتت أيضاً

أهدافنا في الحياة واحدة . وأثناء تواجدنا في وحدات الجيش بالقاهرة عرفني خليل علي باقي أعضاء التنظيم وعلي مؤسسي التنظيم . كان أحدهم يدعي جمال عبد الناصر كان مثقفاً ولبقاً ولديه هيبة ملحوظة بين أعضاء التنظيم . كان له صوت جهوري وملامح ريفية . في تلك الفترة توالت الإجتماعات في منزل جمال عبد الناصر وفي مجلس القيادة ، وتوطدت علاقتي بأفراد التنظيم ..

(٣)

ليلة الثورة .. يوم لن أنساه حتي يفني جسدي من هذا العالم . كان يوم مهيب . الكل مستعد ومتأهب ومتحفز إلي أقصي حد . العيون مشتعلة بالحماس والتصميم . كانت مهمتي في العملية (نصر)إصطحاب قوات وحصار سرايا فريد باشا الصاوي مساعد وزير الداخلية والسيطرة علي المداخل والمخارج وإخضاع الحرس ، ومنع فريد باشا الصاوي من الخروج او الإتصال بأي أحد .

كنت علي رأس القوات نزلنا أمام باب السرايا . ثم أخضعنا الحرس و إلتقطنا من أيديهم الأسلحة ونحيناهم جانباً . أمنت السرايا وعندما أطرقت بنظري إلي أهلي رأيتها . كانت

تساورني ظنون بأني سأراها مرة أخرى وها أنا ذا أراها أمامي . بعيناها الزرقاء التي لم أنساها قط . وملامحها الملائكية التي رسمها المولي بعناية . كانت تلوح لي بيدها هامسة .

- تعالي ..هيا ..

تركت كل شئ وإتجهت إليها . كانت تتدلي بخصرها من نافذة صغيرة . قلت لها في صوت فيه حنين إلي الماضي البعيد :

- علوية ..!!

قالت مستفهمة :

- من انت .. هل تعرفني .. ؟

قلت لها بصوت متحشرج :

- أأنا ...أنا سليمان الراوي جئت من قبل مع خالي أحمد عبد الحي كي نعزف علي العود لضيوف والدك فريد باشا .

- نعم تذكرتك ..

- لم أنساكي منذ ذلك اليوم .

إبتسمت في خجل توردت له خديها . ثم قالت :

- ماذا جاء بك إلي هنا ...ماذا حدث .

- للأسف لدي أوامر بمنع والدك من الخروج وحصار السرايا .

لفظت تلك الكلمات وانا منكس الرأس والعرق يغمر جبهتي .

- والدي مريض ولم يغادر الفراش منذ عدة أيام . وانا هنا سجينة تحت وطأة عمي الغليظ الذي يتعامل معي كسلعة يريد أن يهديها إلي إبنه الوغد . ومن ثم يستولي علي أموالي وممتلكاتي .

أكملت حديثها بعد رأت الإهتمام في عيني :

- أربد منك طلباً .. أريدك أن تساعدني علي الهرب .

- ولكن ....!

- إن لم تساعدني سأموت هنا

صمتت للحظات ثم هززت رأسي موافقة . إنفرجت أساريرها وافسحت المجال لإبتسامة أرغمتني علي أن أسجد لجمالها . يا لك من ملاك ..!!

دخلت إلي الحجرة وجلبت معطفاً . إرتدته وأحكمت ربطه علي خصرها ثم حماتها علي ساعدي ، ونزلت بها إلي حديقة السرايا بالأسفل ، ثم أخرجت ورقة من جيبي وكتبت لها عنوان مقهي الراوي .

- شارع المحافظة في حي العطارين . إذهبي إلي هذا المقهي وأجلسي هناك حتي آتيكي . أخرجتها من بين زملائي مدعياً انها خادمة بالسرايا وليس لها أي علاقة بهذا الرجل المدعو فريد باشا .

وبمجرد أن خرجت علوية من بوابة السرايا هرعت في الشارع كالمجنونة حتي ذابت في الظلام .

في العاشرة من صباح ذلك اليوم العصيب ذهبت إلي مقهي الراوي . دخلت المقهي لا أري حولي من شدة الارهاق . أطرقت بنظري يميناً ووجدتها تفترش أحد المناضد نائمة . أيقظتها وقدتها إلي أحد اللوكاندات وتركتها هناك حتي أعود إليها في وقت لاحق ..

نجحت الثورة وفاقت جميع تصوراتنا لها . أذيع البيان في السابعة من صباح ذلك اليوم بصوت الرفيق محمد أنور السادات . وإكتظت الشوارع بالجماهير المصرية التي لم تكن مصدقة الأمر . كيف يصير الملك هكذا ذكري من الماضي . أين السلطة والحاشية وكل ذلك .. ؟!

بعد فترة قصيرة تزوجت من علوية الصاوي التي كانت سعيدة بالأمر . باتت مهنتي تلامس السحاب بفضل الثورة . المستقبل لنا ..

في البداية كنا نحيا حياة سعيدة في بيت الراوي في العطارين مع أبي وأمي فقط بعد زواج فاطمة من أحمد الراوي . كانت علوية تعين أمي في المنزل علي إستحياء . ثم أنجبت لي مصطفي وتغيرت حياتنا للأسوأ بعد ذلك . كانت ياسمين هانم عرابي عضو أساسي في نقاشاتنا الحادة يومياً . كانت ياسمين هانم بنت فايق باشا عرابي الذي تولي عدة مناصب هامة وكان عضواً بمجلس الشيوخ . تزوجت ياسمين هانم من أحد أعضاء الظباط الأحرار . ولكنه نال وظيفة سيادية وأمتلك السرايا الفخمة والعربة الأنيقة ككثيرين من أعضاء التنظيم الذين جنوا من وراء الثورة ثروات طائلة بوجودهم في مواقع سيادية هامة . أما أنا فكان التهميش هو مصيري المحتوم . لم أكن في يوم متملقاً او منافقاً . كنت مكتفي بوظيفتي وراتبي . ولكن صبري قد نفد من تلك الترهات الغير مجدية . لم تستيطيع علوية أن تنسي حياتها في الماضي . لم تستطيع أن تتكيف مع حياتها الجديدة في هذا البيت البسيط . سئمت الحياة وتبددت كل أحلامي التي رسمتها عن حياتي المقبلة . تحولت علوية كلياً باتت شخص آخر أكثر فظاظة وغلظة وطمعاً . وفي تلك الفترة كانت هناك أزمات طاحنة في مجلس قيادة الثورة وفي صفوف الجيش أيضاً . وسمعت في هذه

الأثناء أن هناك إنقلاب في الجيش سيحدث للإطاحة برجال الثورة الذين يسعون لتهميش صورتهم وإبعادهم عن مجري الاحداث . ووجدت في ذلك الأمر المخلص الوحيد من كل مشاكلي . ومن ثم إنغمست بينهم ، ولكن سرعان ما وشا بنا أحدهم وألقينا في السجن وحكم عليّ بالسجن خمسة عشر عاماً .

إبراهيم الراوي

لم تكن نكسة ١٩٦٧مجرد حرب هزمنا فيها . بل إنها كانت صرخة الحقيقة في وجه شعب غيب عقله جمال عبد الناصر بتلك الأقاويل الكاذبة والإنجازات الوهمية والبروباجاندا الإعلامية . كانت كلمة الهزيمة تلوح في أفق الجميع وحدها دون أي شئ آخر . لا توجد أكاذيب لا يوجد تعقيب لا يوجد تهويل للأمر لا يوجد شئ

لذلك كان وقع الأمر علي الناس شديد القوة . إعتاد الشعب علي تحويل الجيد إلي عبقري وغير معقول من خلال الكذب والتأويل وصنع الإنجازات الغير حقيقية . فكيف لا يكذبون في مثل ذلك الحدث . هل هزمناً فعلاً ..

إستيقظ الشعب في يوم الخامس من يونيو يعاني الهذيان . أين القاهر أين الظافر أين النووي أين الجيش وتوالت الأيام ليعلم بعدها جيل عبد الناصر أن تلك الجملة كانت تعاني النقص . فأضافوا بكل حسرة . أين الثورة أين مطالبها أين الحرية . أين إنتاج المصانع الوطنية . أين الإقتصاد الجبار أين الصحافة الحرة والحياة النيابية السليمة . أين الاصلاح الزراعي ....؟!!

سرت بملابسي الملطخة بدماء الرفقاء عاجزاً عن حمل جسدي الذي تثاقل وتثاقل . سرت واجماً أتخيل شكل الطائرات التي أجهزت علي طائراتنا وأسلحتنا ومعداتنا ونحن أيضاً . كان الرصاص يلتقطنا واحد تلو الآخر . كنا عاجزين عن فعل أي شئ . ضاعت أرضنا وضاع معها كل شئ . لقد لطخنا العار من دون ان نحارب . أثناء سيري في طريقي إلي منزلنا كي أزف الهزيمة لأهلي ويراها الجميع واقعاً أمامه ، إنتابت جسدي رجفة صعدت إلي رأسي وشعرت بأن وعيي بما حولي ينعدم تدريجياً . وكأن الموت سيداهمني . حاولت أن أصطفيق مرتكناً إلي أحد الجدران . وبعد لحظات كان الظلام جاثم علي عيني وسقطت مغشياً عليّ .

فتحت عيني برفق وشعرت بجسدي المتهالك . حاولت النهوض والإستعانة بأي شئ ولكني لم اري شيئاً في ذلك الظلام القاتم . ولم أستطع النهوض بسبب وجود شئ ثقيل جاثم فوقي . كنت لازلت في نوبة من الهذيان وقلة الإدراك . شعرت بزفرات حارة ملتهبة ترتطم بعمودي الفقري . لحظتها

شعرت بنشوة تنتاب جسدي وتسري في جميع أوردتي . ثم سمعت صرخات شديدة منبعثة من الخارج . شعرت بحرية أكثر في جسدي بينما كان الباب ينفتح ثم خرج منه رجل هرم عريض المنكبين . سمح لي الضوء المنبعث من الباب المفتوح بأن أتبين بعض من ملامح ذلك المكان . كنت في حجرة بسيطة يتوسطها فراش كنت أفترشه مولياً ظهري إلي أعلي . ذلك الوضع الذي جعلني أري سترتي وسروالي مبعثرين في الأسفل . حاولت النهوض مستعيناً بعضلات جسدي المهترء . تطلعت إلي الحجرة وعيني تكاد تكون مغمضة . لم أري سوي القليل فالظلام كان يحتوي كل شئ من حولي . إتجهت نحو باب الحجرة الذي أخذ الوميض الكامن أعلاه يرتعش . خرجت ململماً حاجياتي وسرت في ممر طويل لا أري شئ ولا أدرك من أنا ... أطرقت بنظري إلي أقصي ذلك الممر وفتحت عيني عن آخرها ودققت النظر . حتي رأيت دائرة من الناس المتسترين بجلودهم فقط ينتصبون واجمين حول شئ تبينته مع الإقتراب أنه رجل هرم قد سقط ميتاً . نظرت إلي الرجل الذي أدركت من هيكله أنه هو من كان معي تفحصت ملامحه . وكدت أصرع من هول الفاجعة عندما وجدته أخي خليل الراوي . سقط مسدسي على الأرض الذي كان هو يحمله . أخذنا نلتهم بعضنا بنظرات ثاقبة حادة . سمعت إسمي يتردد علي شفاهم ولكني لم أكن إبراهيم الراوي في تلك اللحظة . كنت كلباً من كلاب الشوارع القذرة الذي

ركله ألاف الناس بأقدامهم . خرجت لا أشعر بشئ حولي . سافرت إلي عالم أخر أكثر جنوناً ولاعقلانية . عالم إختلطت فيه كل المآسي التي صارعتني . رأيت نفسي في أحد مسارح أوربا في العصور الوسطي وهناك أسد يمزق لحمي ويطحن عظامي تحت فكيه في تلذذ وضحك جنوني من المشاهدين . رأيتني أرتمي فوق جثث الرفاق في سيناء . رأيتني أتأوه في غنج تحت وطأة أخي خليل الراوي وهو يولج نفسه بداخلي في تلك اللوكاندة العتيقة . رأيتني أقذر شخص في ذلك العالم .

سرت في الظلام عارياً كالمجاذيب . صعلوك ليس له مآوي في تلك الحياة سوي بين القطط والفئران وكلاب الشوارع . بدأ الجنون يتخلل رأسي تدريجياً . صرخت في العدم .

" أين أنت يا عبد الناصر..أين أنت يا عبد الناصر .."

أخذت أمشي منهمكاً في صراخي وجنوني حتي وجدت نفسي أمام منزل الشيخ إسماعيل النجار . عندما رأي هيئتي التي توحي بالجنون . عانقني عناق حار ثم أدخلني بعد صرف زوجته وزينب زوجتي . ثم جلب لي جلباب فضفاض وملابس داخلية تؤول إليه ثم أدخلني الحمام وأنا أستند عليه وعلي زينب زوجتي . طلب منها الشيخ إسماعيل أن تصحبني إلي الحمام حتي تغسل جسدي بالماء البارد . رأيت خليل الراوي يتقدم نحوي آتياً من خلف المرحاض ثم أخذ يخلع ملابسه مع

كل خطوة يتقدمها منتشياً بنظراته التي تلوح بداخلها شهوة ملتهبة . فاختبئت مسرعاً خلف زينب الذي كانت نحيفة الهيكل فإستطاع بذلك أن يقبض علي مؤخرتي ويحوم حولها .
حاولت الفكاك ولكن دون جدوي ، إزداد الأمر صعوبة بعدما تسلل الرئيس جمال عبد الناصر خفية من نافذة الحمام ثم طوق يدي بشئ حديدي محكم الغلق تاركاً المجال لخليل الراوي بأن يعبث بمؤخرتي كيفما شاء . صرخت فيهم بكل قوتي حتي يدعوني ولكن دون جدوي . ألبستني زينب جلباب أبيها وأخرجتني مسرعة . أخذني الشيخ إسماعيل قابضاً علي ساعدي ثم إصطحبني مسرعاً إلي أحد الحجرات ثم ألقاني علي الفراش . وجلس بجواري وأخذ يرتل القرآن والدموع تسقط غزيرة من عينيه . وبعد فترة قصيرة ذهبت في سبات عميق علي أصداء القرآن بصوت الشيخ إسماعيل النجار ..
ولكن هلاوثي التي جعلتني أقرب إلي الجنون من أي شى قد عادت من جديد ولكن تلك المرة كانت أشد . دخل خليل الراوي عارياً كما رأيته في اللوكاندة وكما رآته أمه يوم ولادته . ثم تبعه عبد الناصر ببذلته البنية وملامحه المنتشية . ثم إعتلاني خليل الراوي من جديد بالتناوب مع عبد الناصر . تقاسما الإثنان وطأي حتي شعرت بأني أتهاوي من علٍ ..

فليكن الموت هو الطريق الوحيد إذا تخضبت كل الطرق بأشواك العار والهزيمة . فليكن الموت هو السبيل الوحيد للجنة طلما دنسني العار . العار لا يليق بي فإما الحياة أو

الموت . ولأن الجنون قد عبث بعقلي والهزيمة قد قتلتني وأجهزت عليّ تماماً ووطأ خليل الراوي رجولتي وحطم كبريائي .. فلا حياة بعد العار .. لا حياة بعد الآن .

تخللت إلهام نشأت الملتقي العائلي في خجل مصطنع برفقة زوجها حسين الراوي . إستقبلها أحمد الراوي بنظرة واجمة ثم إنتصبت الخالة ميري زوجة عمي أمين الراوي وأم الأخوان أحمد وحسين . رحبت بها وعانقتها برفق ثم قادتها إلي الداخل وأجلستها بجوارها علي الأريكة . رحبت بها فاطمة الراوي وأمي وزوجة عمي يوسف الراوي ، وأخذن يتوددن إليها ويعبثن بأطراف ثوبها . بينما جلسنا نحن الشباب بعيداً وأخذت الخالة ميري تعرفها علينا واحد تلو الآخر . عمي يوسف الراوي ثم خالي أحمد عبد الحي ثم أحمد الراوي ثم خليل ومن بعده أنا . ثم جلبت لها أبناء فاطمة وأحمد ، محمود البالغ من العمر اربع أعوام وعيسي البالغ من العمر سنتان فقط . أخذت تداعبهم وتقبلهم ثم حملت عيسي وأجلسته علي قدمها .

عندما تخلل أبي باب البيت أظلم الجو فجأة . دخل مهموماً بائساً خائر القوي . هرعنا نحوه جميعاً صرف بيده أخي خليل دون سبب يذكر ثم جلس واجماً مطرقاً بنظره إلي العدم .

سألته أمي عما به فلم يجب ولكنه أجاب حين رددت زوجة عمي أمين السؤال مرة أخرى :

- لقد ضاع كل شئ .. لقد هرب الخواجة إسحاق وابتاع البضاعة لأحد التجار بنصف ثمنها وغادر البلاد بعد ذلك .

كانت صدمة مدوية للجميع . إزدرد أبي ريقه بصعوبة ثم تجرع شربة ماء .

كان أبي لديه حانوت صغير في الاسكندرية بحي المنشية لتجارة الاقمشة . وكان تاجراً ميسور الحال يكتسب رزقه بكل أمانة . وكان لديه صديق يهودي الديانة يدعي الخواجة إسحاق ..أراد أبي أن يكبر من تجارته فإقترح علي الخواجة إسحاق أن يشاركه ويفتتحا حانوتاً كبيراً . وافق الخواجة إسحاق . كان الخواجة إسحاق تاجر أقمشة أيضاً ..ولكن عندما طرد اليهود من مصر أثناء العدوان الثلاثي فر الخواجة إسحاق بعدما باع كل شئ .

لم يبقي لأبي أي سبيل لكسب الرزق سوي ان يؤجر حانوته إلي أحد التجار . تدمرت حالة أبي بعد تلك الحادثة . بات بائساً حزيناً شاحب اللون . لا يضحك إلا قليل . سريع الإستثارة بعد أي قرار سياسي مفجراً طاقته الدفينة في خليل بإعتباره أحد الضباط الأحرار .

كنت صغيراً عندما إصطحبني الشيخ إسماعيل النجار للعيش معه في منزله مع زوجته وإبنته زينب . في الطريق إلي منزله قص عليّ أمر غريب ، وهو انه قد رأي النبي محمد في منامه وأخذ يهتف له بإسمي . وبالطبع فإنه قد قص علي أبي ذلك الأمر حتي يسمح له بأخذي معه . وافق أبي بعد إلحاح شديد بعدما قال له الشيخ إسماعيل النجار بأنه سوف يعلمني علوم الدين والدنيا حتي أصبح عالماً جليلاً . لم يمر أكثر من عام حتي كنت قد حفظت القرآن الكريم كاملاً كان الشيخ إسماعيل النجار في سعادة غامرة عندما أتممت حفظ القرآن . كما أنه علمني علوم الفقه والحديث والشريعة وغيرهم بالإضافة إلي قراءاتي في فنون الأدب والعلوم الاخري . لم ألتحق بمدرسة في عمري بل كان الشيخ إسماعيل النجار هو المدرسة التي دست القيم الصالحة في رأسي و نقلت لي كل علوم الدنيا . كنت اشعر في بعض الأوقات ان ذلك هو والدي وأن منزله هو منزلي . لم أخرج من بيته منذ دخلت إلا للسمر مع الرفاق وإشتراء الكتب وحضور ملتقي العائلة يوم الجمعة ببيت الراوي.

كانت زينب بمثابة أخت لي . كنا نحفظ القرآن سوياً في الصغر بواسطة والدها . كانت مثقفة وخبيرة بالكثير من الأمور . كان الشيخ إسماعيل النجار وزوجته سعداء بوجودي معهم . كنت

هادئاً لا أثير المشاكل كالكثير من الاطفال في ذلك العمر . كنت بوجههي المستكين ونظراتي الواثقة وملامحي الملائكية أبعث الهدوء في كل أرجاء البيت . فلا يشعر بوجودي أحد ولا يشعر بغيابي أحد . وعندما خط شاربي وتغيرت وجهتي عن الحياة . تغيرت أيضاً نظرتي لزينب . رأيتها جميلة ولطيفة الطابع وعذبة الحديث . بملامحها بارعة الجمال وبسمتها الساحرة . كانت بسمتها تنير ثنايا المنزل حتي أشعر أني أقطن الجنة . زوجنا الشيخ إسماعيل النجار قابضاً علي دهشتنا الزائفة . وبعد مرور عام كانت ثمرة حبنا قد دنت إلي الحياة مشوبة بالدماء والصراخ . رست أقدام إسماعيل إبراهيم الراوي في منزل تكسو جدرانه السعادة . وتنمو فيه الحياة خضراء ضاحكة . ذلك البيت كان في أحد البقاع البعيدة عن ذلك العالم الموحش . لا ننتمي إليه ولا ينتمي إلينا . تولي الشيخ إسماعيل تدليل الصغير وتنشئته .

وذهبت انا للإنضمام لصفوف الجيش المصري . حتي نعين تلك البلاد علي المضى قدماً فوق كل العثرات التي تواجهها . فلازال لمصر رجال يستنشقون ترابها بدلاً من الهواء .

مصطفي الراوي

ويل لكل من حادثني في يوم من الايام . أو صافحني بصفاء نية . لقد خدعت نفسي الهزيلة قبل أن أخدع الجميع . لقد لطخني العار ووطأتني خطاياي . خرجت بصحبة أبي وصديقته العاهرة . سرنا في الظلام لا نقدر علي حمل أقدامنا المنغمسة في الوحل . لا نقدر علي النظر إلي أنفسنا . نترنح كالقردة ..

صارت الحياة شى مستحيل .. بدت النهاية البائسة أقرب الطرق . نري الموت يلوح في الأفق مرتدياً سترته الداكنة . يهتف علينا بصوت متصاعد .

" هلموا الموت يناديكم . لا توجد لديكم فرصة في الحياة مجدداً بعدما زالت قلوبكم وتبدلت .. ستدنسون العالم بقلوبكم القاسية . ستطرقون أبواب الجحيم "

بالفعل بات الموت هو نهاية أحزاني . المسلك الوحيد الذي لن أذكر فيه الماضي . لن أذكر فيه أني قد إعتليت أمي في الظلام ورأيت وجهها الناصع في الضياء يتغنج ألماً ومتعة . لقد تربيت في أحضان العاهرات ولكني لم أمسس إحداهن في

حياتي . مرت حياتي نقية عفيفة حتي دنستها أمي بجسدها متفجر الأنوثة الذي ألهب أنفاسي وأنساني عفتي البائدة . سرت النشوة في جسد كانت تجهله طيلة هذا العمر . العار لكي يا أمي ..

العار لي وكل العار لي .. العار علي أشعاري وكل ما دونت ببذلة الراهب المترفع عن الحياة ...

العار علي كتب قرأتها مدعياً أني لست منتمياً للعالم الذي تربيت فيه .. العار علي عباءة النبوة التي إرتديتها وأنا ألقي قصائدي الرنانة علي آذان العاهرات والخطاه والزناه ...

العالم تداعبه أنامل المخادعين

و تحيك شوارعه وضواحيه

في الأزقة المظلمة الملبدة باللصوص

لا يوجد موقع لأقدام الصالحين

لا يوجد منفذ لرائحة إنسان

لا يوجد مغزي للتاريخ

لا ُتري أفواه تتكلم

لا يرثي الجاهل ما يجهل

في كثيراً من الأحيان يكون الصمت من الحكمة . ولكن في بعض الامور يكون الصمت جنون . لا أعلم هل بات العالم في الخارج يشبه تلك البقعة السحيقة التي أقطنها أم لا . هل إفترش المخادعين والخطاة ذلك العالم ..؟ هل شاعت الفواحش والمحرمات ...؟

هل تترامي رائحة الدنس ..؟

اللعنة علي كل من إبتاع أدميته إلي أن بات العالم مثل الغابة . تتصارع فيه الشهوات و المطامع بكل ضراوة وعبثية . نحيا في ترهات ليس لها نهاية أو بداية . نحيا كمن خلقوا من العدم . نهرع وراء الحياة العابثة ونلهث خلف المتع الزائلة . أجسام هزيلة أنهكتها الحياة تحت وطأة الفضيلة فأقسموا علي ألا يضيعوا لحظة واحدة خارج هذا المكان . حيث ملتقي الحمقا والمخادعين . هنا تنصب اللعنات وتتعالي الصرخات المدوية ..

لا حياة مع الفضيلة ...

لا للفضيلة ... لا للفضيلة ...لا للحياة المشوبة بالندم . فالنخطأ وكأننا لسنا ببشر . فالنخطأ وكأن الخير والفضيلة قد

تهاووا إلي قاع الدنيا . فلنضرم اللهيب في كل شئ حتي في مبادئنا التي لاصقتنا في يوم من الأيام ..

فلنحيا وكأن الإله قد فنا ...

فلنحيا حتي لو داهمنا البكاء البشري في كل لحظة .. فلنحيا تعساء يتهشم إدراكنا بالعالم في كل لحظة . فلنطمث تلك الآلام إلي الأبد .

كنت واهناً ضعيفاً لا أقدر علي مبارزة باعوضة . لم أمنع أمي أبداً عن مسلكها الملتوي . لم احاول في حياتي أن أوقظ ما تبقي داخلها من أدمية . لربما خضعت إلي تلك المحاولات . لربما قبلت لو أني كنت قد بادرت . ولكني تركتها تكمل ما بدأت تحت عناية أحمد الراوي . الوحيد الباقي من العائلة كما كانت أمي توهمني . فكانت تقول لي أن أحمد الراوي هو عمي وجئنا إلي هنا لنعيش معه بعدما مات أبي ولم نجد من يعولنا . في طفولتي نسجت لي قصة غريبة حول العائلة بأن البيت قد سقط بينما كان الكل بداخله . بينما كانت هي تشتري أغراضها وعمي أحمد الراوي كان في عمله وكنت أنا مازلت في بطنها لم تحين ساعة ولادتي . منذ سماع تلك القصة وأنا مكتفي بذلك دون البحث عن أي معلومات إضافية .

في أحد الأيام بينما كانت اللوكاندة مزهوة بالغناء والرقص والأجساد الملتهبة العارية الثملة . كنت أخط أحد قصائدي وترامي الصخب إلي مسمعي . فنهضت من مكتبي وتواريت خلف الحائط أراقبهم . كان أحمد الراوي يرقص مختالاً بين الفتيات بجلبابه الغليظ وهيئته المنفرة . أخذ يتجرع الخمر بنهم وكذلك أمي التي كان تتلاعب بجسدها بجوار رجل ذا جسد جسيم ونظرات نافذة . قفزت الدرج هابطاً بينما كانوا لا يروني تحت وطأة الخمر والرقص والغناء والضحكات الخليعة التي ترامي صداها في كل مكان . صوبت نظرة حادة إلي أمي فلم تأبه بنظراتي وكأني أصبحت شبحاً عديم الوجود .
تفحصت المشهد الذي أثار حفيظتي واشمئزازي . ثم أخذت أصرخ فيهم ببعض الأبيات الشعرية التي كتبتها حتي يفيقوا مما كانوا فيه . بينما كنت واقفاً في المنتصف أرتل الشعر في حماسة . كانوا يتقاذفون القبلات الحارة ويتداولون الكؤوس الفارغة بغيرها مملوءة . ويتراقصون في جنون من حولي ويجذبوني بشدة من أطراف زيي ..

لا يوجد موقع لأقدام الصالحين

لا يوجد منفذ لرائحة إنسان

كانت المبادرة الأولي والأخيرة . ومن بعدها إنصرفت مرة أخري إلي كتبي ودروسي وقراءتي وقصائدي . تيقنت ليلتها بأن العودة إلي الصواب بات شيئاً مستحيلاً . لقد تهاوت علوية الصاوي إلي الحضيض ..

أحمد الراوي

كان الفجر قد حان عندما سمعت أصوات أقدام تعلو وتخفت . نهضت من مخدعي ثم فتحت النافذة ودنوت منها حتي رأيت علوية الصاوي تخرج من باب البيت وفي يدها إبنها الرضيع وحقيبتها وباقي أغراضها . أغلقت الباب في رفق ثم سارت بخطوات مضطربة . تخللت جلبابي وإنتعلت حذائي سريعاً ثم عدوت خلفها . سارت في الشارع واجمة كمن فقدت الطريق . لا تعرف أين تذهب . ثم توقفت أمام احد المنازل . ثم تخللت ذلك المنزل المضاء بمصباح واهن . دخلت خلفها ذلك المكان الذي أدركت بمجرد النظر أنه لوكاندة . و بمجرد أن شرعت في الحديث الهامس مع صاحب اللوكاندة قبضت علي معصمها بشدة . نظرت لي في دهشة غير مصدقة . ثم طلبت من الرجل أن يمنحنا حجرة باللوكاندة . ثم أخذت مفتاح الحجرة وجذبتها من معصمها إلي أعلي . سارت بجواري مشدوهة تطلع إلي إبتساماتي الفاترة ونظراتي الواثقة . تخللنا الحجرة ثم ألقت بأغراضها وسألتني بصوت حاد :

- لماذا جئت معي إلي هنا ..

- وأنتي.. لماذا هربتي من المنزل .. ؟ هل سولت لكي نفسك أن تدعي زوجك خلف جدران السجن يأن إشتياقاً لك وتفرين هاربة بمجرد أن قبض عليه ..

- لقد سئمت العيش في ذلك المنزل ..لم أظن في يوم من الأيام أن تلك الحياة البائسة ستكون حياتي . لن تتعدل أموري حتي تعود علوية هانم الصاوي علي ما كانت عليه من ثراء وترف وسلطة وخدام يطوفون من حولي .

- وماذا عن بيت زوجك ..؟

- لن أعود إليه ثانياً .. وأريد مساعدتك أعلم أنك رجل لين القلب ..

قالتها بصوت واهن يملأه الدلال ثم أخذت تقترب مني بخطوات حثيثة وتداعبني بنظراتها القاتلة . أخذت تقترب مني حتي لاصقت جسدي . وبذلك قد تحقق مقصدي وباتت علوية أداة لينة في يدي أحركها أينما شئت . شعور قاتل بأن تكون هناك أنثي حسناء مكتملة الأنوثة ومشتعلة الجمال قد باتت تحت سطوتك . وأن ليس هناك الآن ما يحول بينكم ..لففت يدي حول خصرها ولاصقتها بجسدي . فصلت جسدها عن جسدي ثم حملت إبنها مصطفي من علي السرير وأودعته مقعد وثير بأحد أركان الحجرة . منذ تزوجها ذلك الأحمق وأنا أشعر أنه لا يستحقها . كما لم يكن حسين الراوي أيضاً يستحق إلهام نشأت . كلهم حمقا يلتقطون النساء المفترشات

الأرض التي وطأتها قدمي . الكل يريد أن يثير سخطي ولكني لا أبالي . سحقاً لكم ولنسائكم .

لتتوالي الصفعات علي وجهك يا كبير الحمقا . سأضاجع زوجتك الآن واعتليها بكل وحشية . سألهب نشوتها وأجعلها تتلذذ حتي الثمالة ، حتي تنسي أنها تزوجتك في يوم من الأيام . سأحطم صورتك بداخلها مقابل أن أطفئ حاجتها الشبقة للرجال .

خلعت عباءتي وجلست علي حافة الفراش . ثم جلست بجواري مفتعلة إبتسامة هادئة . ثم عاونتها في خلع ثوبها التي بدت فيه كملاك آتي من الجنة . ثم أطفأت مصباح الحجرة بينما شرع الطفل في بكاء خافت . ولكن ليكن ما يكن فأنا الآن علي حافة الجنة

.....

(٢)

آتي محمود إلي الدنيا في ليلة صاخبة بالصراخ والعويل . في تلك الفترة كنت أحيا حياة بالغة الجمال . فعلي الرغم من أني

قد إمتنعت عن ملامسة فاطمة إلي فترة ولكني قد وطدت حياتي مع علوية . فقد إستنشقط رحيقها بلا هوادة ونهلت من نهر أنوثتها حتي رويت بدني . كما انني قد عدت إلي الجلوس ليلاً أعلي المنزل حيث مشاهدة أم حميد وبناتها . لا يوجد مانع من العودة إلي الماضي حتي لو كان مخجلاً ..

تمكنت من نسيان إلهام نشأت التي أحببتها حب عابر ظناً بذلك بأني سوف أروق للجميع وأصبح في يوم وليلة كأبناء عمي الذين ساروا كلٍ في طريقه . أنستني علوية ذكري إلهام نشأت إلي الأبد . كانت علوية الصاوي أكثر جمالاً من إلهام نشأت . بينما شرع جسر وهمي يحول بيني وبين فاطمة . كنت كثيراً ما أتغيب عنها بحجة وجودي مع أحد الأصدقاء ولكني أغلب الايام كنت أقضيها مع علوية . كبر مصطفي أيضاً وبات مصدر إزعاج في اللوكاندة بعبثه الدائم بكل شئ . سارت حياتي علي تلك الوتيرة بدون أن أبدي أي عدم رضا . فكنت سعيد بتلك الحياة . ولكن بالنسبة لعلوية فكان الأمر مختلف . ظلت مشكلتها قائمة لم تحل بعد . فلم تعد علوية هانم الصاوي كسابق عهدها . بل تدهورت حالتها عما كانت برفقة سليمان الراوي . وكنت متيقناً بأني لم أكن حلاً لمشكلتها . ولذلك لم أبدي أي تذمر عندما أخبرتني عن أمر نزولها إلي العمل . عملت علوية راقصة في ملهي ليلي يدعي(ريو).. كان ملهي ليلي صغير يقع في سان ستيفانو ويطل علي البحر .. لم يكن ذا شهرة واسعة في الإسكندرية

ولكن بعد أن تخللته علوية قد ذاع صيته في الإسكندرية كلها . ومع الوقت بدأ الرجال يرتمون تحت أقدامها مقدمين ما يملكون من أموال . وفي سبيل العودة إلي ما كانت عليه في الماضي إبتاعت جسدها لمن يشتري بأغلي الأثمان . كانت تلتقط الزبائن من الذين كانوا يرتمون أمامها لاهثين بعد إنتهاء رقصتها ثم تعطيهم عنوان اللوكاندة ليحجزوا حجرة هناك ، وفي الظلام القاتم تلتقي بأحدهم في حجرته . وفي الصباح يكون الأمر قد إنتهي . ظلت علوية علي هذه الوتيرة التي جنينا من وراءها أموال ليست بالكبيرة وليست بالقليلة أيضاً . لم تستطيع علوية سوي شراء بعض الفساتين الفاخرة وبعض قطع الحلي البسيطة . لازالت السيارة الفارهة والسرايا الفاخرة بعيدين كل البعد . سال لعابي بشدة عندما إقترحت علوية عليّ بأن أبيع المقهي وأن تبيع هي أيضاً بعض الحلي لنشتري تلك اللوكاندة التي نقطنها بعد أن عرض صاحب اللوكاندة المنزل للبيع .. بعت المقهي بدون إستشارة اي فرد من أفراد العائلة .. ثم إشترينا المنزل وتوطدت علاقتنا بالعمل معاً . بالنسبة لعلوية فقد كونت شبكة من الفتيات العاملات بالملهي ووطدت أيضاً علاقاتها مع كل زوار الملهي من الرجال الكبار في الدولة أصحاب النفوذ الواسع . فليس علي أحدهم سوي أن يلوح بإصبعه الصغير لعلوية فتوفر له الفتاة والمكان وكل شئ . ليس عليه سوي أن يترك لها المال الوفير الذي يسد حاجتها ثم يتجه مباشرة نحو لوكاندة

الإسكندرية بشارع شريف . وهنا تكمن مهمتي فأوفر الحجرة المناسبة وأعين الزبائن علي قضاء حاجتهم و إشباع شهواتهم .

سارت حياتنا علي تلك الوتيرة من دون أي تغيرات . أخذنا ندخر المال حتي كونا مبالغ طائلة . إبتاعت علوية سيارة فارهة أنيقة جعلتها في سعادة غامرة . هنا فقط شعرت أني أعدو وراء الأوهام وأسير في طريق لن أجني من خلفه شئ . إنتابتني الحسرات علي بيع المقهي . لأول مرة في حياتي أصب اللعنات علي شهواتي النهمة التي لا تنتهي ولا تضعف ...

بدأت المسافة بيننا تتسع بعدما شعرت علوية بأنني قد سأمت دوري في تلك المسرحية . أصبحت أعمل عندها بالأجرة ليس أكثر من ذلك . في تلك الفترة كنت نادراً ما أقضي الليل بجانب فاطمة . كنت قليلاً ما أذهب إلي منزلنا بعيداً عن مداومتي حضور ملتقي العائلة التي تحاك فيه المكائد والضغائن ...

سليمان الراوي

إنتشيت عندما داهمتنا الأمطار .. غمرتنا قطرات المطر الباردة ، تخللت ما تحت زيي وبللت الخصلات البيضاء التي تناثرت فوق رأسي بغزارة . شعرت بيدي المرتعشة تتجمد تحت وطأة الأمطار . تخللنا بيت الراوي في هدوء ، وقفنا لفترة نتأمل منظرنا المثير للشفقة والسخرية معاً . في الطابق الأول رأيت ميري سميث تقف بجوار الباب . شاخت كثيراً عما كانت وتسلل لها العجز والوهن . إفترش الأبيض شعرها وعاست خطوط الزمن في وجهها الذي ما زال يتحلي ببعض النضارة . عانقتني عناق حار أعادني عنوة إلي الماضي البعيد وإلي الذكريات الدفينة . أنهكت عضلات جسدها عندما صافحتها بيدي المرتعشة . خرجت أمي عندما أصغت إلي صوتي . أمعنت النظر في وجههي الذي بدا أكثر نحولاً عن ذي قبل . ثم تفحصت ملابسي الرثة ثم أجهشت في البكاء وإرتمت صارخة علي صدري . لم يهتم أحد بأمر الإثنان مصطفي وشوقية . قادتني أمي إلي الداخل ومن خلفي

مصطفي وشوقية الذين ظلوا منكسين الرأس واجمين . قام أبي وعمي وعانقاني ومن بعدهم جميع الجالسين . جلست وبجواري مصطفي وشوقية وأطرقت بنظري نحو الجميع . كانت العائلة كلها جالسة بجواري لم يغب أحد . جلس أحمد الراوي اللعين الذي تركته منذ فترة ليست بالطويلة بجوار فاطمة أختي وأبناءهما محمود وعيسي . وجلس خليل الراوي شاحباً يتأمل العدم . كان الوحيد الذي لم يصافحني بين هذا الجمع . جلس حسين الراوي بجوار زوجته إلهام نشأت برفقة أولادهم فهيم وهدي وحكمت . وجلس أحمد عبد الحي برفقة العود مبتسم الثغر .

- هذا مصطفي ..إبني

زفرتها وشعرت بأني ألقي حجراً من فوق صدري . إعتلت الدهشة جميع الوجوه بما فيهم مصطفي الذي جحظت عيناه بشدة بعد سماع الأمر . خلطت أمي الدموع بالضحك وأخذت تذكر الله وتحمده . سألني أبي :

- كيف وجدته يا سليمان .

- قد أخبرني صديق لي عن مكان علوية وذهبت لها وطلبت منها أن أخذ مصطفي معي .

سألتني أمي بعدما إعتلت ملامحها الحيرة :

- ومن هذه يابني :

- هذه شوقية ... زوجتي

لفظتهاً مقتضباً حتي لا يتساءل أحد آخر . وبحركة بسيطة من ميري زوجة أمين الراوي إلي أحمد عبد الحي كان الغناء والعزف قد بدأ . أمسك أحمد عبد الحي بتلابيب العود وبدأ يشدو بصوت عذب . بينما كنت أتطلع إلي الوجوه التي تلاعبت بها السنوات . إزداد حسين الراوي غروراً علي غروره بعدما تسللت إلي وجهه نظارة سميكة يسير بها بين أوساط المثقفين ، وإعتلي فمه شارب كثيف بدا أقرب به إلي نيتشة . أما إلهام نشأت فكانت كزوجها لا تختلف عنه كثيراً بنظرتها المختالة وهيئتها المهندمة . أما عن أولادهم هدي وحكمت وفهيم . فكانوا في تباين شديد . فبينما كانت هدي قد إستحوذت علي وسامة والدها الذي إستحوذ عليها من أمه الإنجليزية ، ثم إستحوذت أيضاً علي جمال امها ونظرتها الواثقة وجسدها المثير متفجر المفاتن ، ثم مزجت كل ذلك بعناية . كانت علي النقيض تماماً من حكمت أختها التي مزجت بين جمال أقدام والديها . فكانت دميمة ورثة الملابس وقليلة العناية بنفسها . بشعرها المجعد وبشرتها السمراء المليئة بالبثور . وملامحها الغير متناسقة بفمها الواسع ،و أنفها الغليظ ، وخديها الذي تنبعج عظامهما إلي الخارج ، وأسنانها الباهتة المتراكبة .

أما عن فهيم فكان ذا مظهر حسن تشوبه مسحة أنثوية . ثم أطرقت بنظري إلي أحمد الراوي القواد الملعون الذي إزدادت نظراته جنوناً عما كانت عليه . حيث بات شاحباً بنظرته الواجمة واسفل عينه الذي لونه اللون الأسود ، وتلك البسمة الفاترة التي لا تغادر وجهه أبداً بغض النظر عن طبيعة الحدث الذي يوضع فيه . كانت تلك البسمة هي مبعث الأقاويل والتأويلات ..

أما فاطمة فقد باتت أكثر حزناً بنظراتها العدوانية الخالية من أي لين . أما عن محمود وعيسي فكانا شابان صالحان يشرقان البيت بمظهرهما البديع . فكانوا علي النقيض تماماً من والدهم الذي تلوح آمارات الجنون من وجهه ..

تطلعت إلي أبي الذي كان يجلس بجوار صفوت الراوي ويهمس في أذنه بكلمات مبهمة .. كان عمي صفوت الراوي حزيناً بدرجة كبيرة لا اعلم لماذا .. تطلعت عينه البائسة الغير آبهة بما يدور من حولها فإزداد حزني وحسرتي علي تلك الأعوام التي إنصرفت سريعة .. لقد تدهور ملتقي العائلة . باتوا كحطام سفينة عملاقة ينخرها السوس . باتوا أشلاء مفتتة تقودها عقول هزيلة منهكة . لقد تسلل الوهن والجنون إلي عائلتنا .

ناولني أحمد عبد الحي العود مبتسماً وطلب مني أن أعزف عليه . لم اتواني عن الأمر بل إلتقط العود لاهثاً وإنهمكت في العزف . لم أنسي قط الدروس التي كان يلقيها عليّ خالي أحمد عبد الحي . وبعد لحظات كنت قد فقدت الوعي بالمتراصين من حولي واخذت اعزف لحناً كئيباً بكت له أوتار العود . شعرت بيد رقيقة تتحسس ظهري ثم أكملت السير حتي وصلت إلي عيني فجففت الدمع من فوقها . كنت أهدأ عندما أعزف علي العود . ذلك السحر الذي دسه أحمد عبد الحي بداخلي منذ الصغر . صوت العود من الاصوات النادرة القادرة علي ان تعزلك عن العالم . فأثناء العزف تكون أصم وأبكم وفاقد لكل ما يجعلك واعياً . أنهيت المقطوعة ونهضت من مجلسي ووقفت في النافذة أزفر الحسرات .

- بارك الله لك في ولدك ..

قالها أحمد الراوي ساخراً .. فقلت دون أن أنظر إليه :

- بعت مقهي والدك حتي تكون قواداً ..يا له من طموح قذر !ولكن معك العذر.. فالنقود التي تجنيها من وراء ليالي علوية النجسة تدفأ جيبك إلي حد ما ..

شعرت بالغضب في نبرة صوته . ولكنه إفتعل بسمة فاترة قائلاً في هدوء لا يخلو من تهكم :

- لا تنظر للوراء يا صديقي ولا تصب الحسرات علي الماضي ... ذهبت عاهرة و جاءت آخري ..

قالها مشيراً بسبابته نحو شوقية التي تكومت بجسدها النحيل بين السيدة ميري ومصطفي ..

- ماذا حل بالعائلة ..؟!

قالها خليل الراوي هامساً . بينما تعالت من المذياع أنباء هامة . نهض الجميع من أماكنهم وإلتصقوا بجوار المذياع . وأذيع بيان تنحي جمال عبد الناصر الذي نزل كالصاعقة علي الجميع . صرخ خليل الراوي في وجهي منتفضاً من مكانه ب لا لا لا .. ثم صرخ فيه صفوت الراوي جاحظاً العين :

- ماذا تريدون من البلاد بعدما ألصقتوا بنا الهزيمة والعار ..؟

أخذنا نتصارخ في وجه بعضنا بينما كان أحمد الراوي يتهاوي علي أذاننا بضحكات مدوية يلقيها في العدم .

- ماذا حل بالبلاد ..ماذا يحدث ..؟

قالتها ميري سميث بعربية ركيكة وهي تذرف الدموع . هرع أحمد عبد الحي نحو التليفون الذي تعالي رنينه الصاخب . كنا منهمكين في الصراخ والصخب والبكاء والدهشة التي لا يمحوها شئ . أعاد أحمد عبد الحي السماعة في صمت . ثم سار نحونا كتمثال فرعوني دبت فيه الحياة . ثم ألقي علي آذاننا خبر مدوي :

- إبراهيم الراوي ...مات !

صعق الجميع بعد سماع الأمر . خرت أمه مغشياً عليها بينما صرخ صفوت الراوي في العنان . وتكوم خليل الراوي في أحد الأركان يضحك بصورة جنونية واخذت عيناه تزداد جحوظاً وانتابت جسده رجفة جعلته يتحرك كالقردة . أخذت فاطمة أختي وأمي يعولان علي موت الشاب الطاهر النقي . نعم .. الأنقياء يفنون أولاً . وقف أحمد الراوي صامتاً بنظرته الواجمة الساخرة . ثم إتجه نحو خليل الراوي وإنحني إلي أذنه قائلاً :

- يا لك من فحل جبار ..!

★★★

(٢)

كل الظروف تدفعني عنوةً لأن اكون مخادعاً . رغم كل شى مازال بداخلي إنسان يصارع من أجل أن يحيا حياة طاهرة

.مازلت أدين للماضي ببعض القيم الصالحة . ولكن مع تعاقب الأيام وتوالي العمر يتحول كل شى .. وسليمان الراوي الذي كان قوياً مترفعاً عن كل ما يؤذي جوارحه بات أكثر هشاشة و وهن كريشة رقيقة في مهب الريح ..

أعلم أن النهاية ستكون بائسة وأشد بطشاً . لن تساوي الحياة بين من يحلق في السماء ومن يعاني شظف العيش والذل ..سأظل أتوسل كسرة الخبز هكذا حتي يهلكني الموت وتحين النهاية ..

تزوج خليل الراوي من جميلة الشرقاوي إبنة وزير الداخلية وعاش معها حياة هانئة مترفة .. عقب الثورة ظل خليل الراوي مستكيناً في موقعه غير آبه بأي حسابات آخري . أخذ يوطد علاقاته بالرتب العليا والرجال الأكثر أهمية . ولكنه في نفس الوقت كان يدين بالولاء والطاعة لمجلس قيادة الثورة .. ومرت الأيام حتي بات مساعداً لمحافظ الإسكندرية . ثم عضواً بمجلس النواب . ظل يتوغل بين الكبار حتي بات واحداً منهم . وعلمت من صفوت الراوي أنه متزوج في السر من راوية شحاتة لأن جميلة الشرقاوي كانت عقيمة . وأنجب منها بنت . كانت راوية شحاتة حب الطفولة لخليل الراوي . كانت تقطن المنزل المجاور لمنزلنا . ظلت حبيبته حتي باتت غير مناسبة

لحياته القادمة فبدلها بجميلة الشرقاوي صاحبة المال والجاه والجمال .

كان شحاتة المصري بائع خضار بسيط إلي حد ما . ببنيانه القصير وهيئته المزرية وعباءته الفضفاضة وشاربه المشعث أسفل أنفه . لم يتواني في قبول زواج إبنته من خليل الراوي حتي ولو سراً ، فالمستقبل المشرق فاتحاً له كلتا ذراعيه . وبالرغم من ذلك فإن تلك الزيجة لم تغير كثيراً من حياة تلك العائلة الفقيرة . فلم يطرأ علي العائلة أي تغير سوي إنتقال راوية من منزل أبيها البسيط في حي العطارين إلي منزل متوسط الحال في الشاطبي . فظل أبيها يعاني الفقر محتمياً من الجوع إلي بعض نقود يلقيها له خليل الراوي بجانب الجنيهات القليلة التي يجنيها من بيع الخضار ..

بعد محاولات عديدة تمكنت أخيراً من دس أناملي بخفة وهدوء والتقاط حافظة النقود من جيب معطف شوقية . صفقت لي تصفيق حار علي ما أبليت . قمت بعدة محاولات تالية علي غرار تلك المحاولة الاخيرة حتي صرت لصاً بارعاً تتحرك أنامله بين السترات والحقائب بكل سهولة ويسر ... الخفة والسرعة .. تلك أصول الحرفة التي جرعتني إياها شوقية . تلك الفتاة التي كانت بجانب هيئتها المثيرة للسخرية كانت معلم ماهر وواثق من أدواته .. لم أصدق براعتها في

السرقة فكانت تدس يدها في جيب منطالي في خفة لا تصدق وكأن شيئاً لم يكن .

كانت تلك المهنة الضحلة هي مصدر رزقي الوحيد والذي أعتقد أني لن أجد سواه أبداً . كنت أنزل في وقت الظهيرة وأثب بداخل أي عربة بشرط ان تكون شديدة الإزدحام .. ثم اتسلل إلي الكتل البشرية الملتحمة ثم بعد فترة قصيرة أنزل من العربة بعد أن أكون قد جنيت بعض لا بئس به من الحافظات المكتنزة . ثم أعود إلي بيتي ظافراً منتصراً .. وبسبب تلك المهنة التي جنيت من وراءها أموال ليست بالقليلة بفضل ذكائي وحرفيتي العالية ، عشت أنا ومصطفي وشوقية زوجتي وطفلنا الجديد حياة مستقرة . ثم أنجبت بعد ذلك بنت أسميتها نور . كنت أعلم أن النقود التي جمعت من جيوب الناس خلسة لن تعود علينا سوي بالهم والخراب . ولكن الحياة لا تسمح بمن لا يملكون النقود بأن يعيشوا فوقها لحظة واحدة . فلم أجد عملاً أشرف من ذلك حتي اقوم به ..كنت أنتظر اللحظة التي ستحل فيها اللعنة علينا . فقد طرقنا باب الجحيم مراراً حتي بتنا لا نخشاه ...

★★★

بانت عجيزتي وافترش الشيب رأسي . وغلف جسدي صدأ الأعوام البائدة . وعادت الرجفة تؤنس يدي من جديد . باتت ممارسة المهنة أمراً صعباً .. كبر مصطفي ثم تلاه شريف في الكبر ومن بعدهم نور الصغيرة .. إلتحق مصطفي بكلية الحقوق . وإلتحق شريف بالمدرسة ومن بعده نور . كانت نور ذات ذكاء بارع يبرق من حدقيتها المتفتحتين . كانت مولعة بالكتابة . كانت تكتب بطريقة عشوائية علي أي شئ . كان لهوها في الطفولة أن تمسك بقلم وكومة ورق ثم تكتب لساعات طويلة دون إنقطاع . أما شريف فكان طفلاً هادئاً لا تصدر منه أي أفعال صاخبة . فكان لديه نظرة حادة واثقة منذ الطفولة . كان شريف يشبه أمه كثيراً بلونه الأسمر وقامته الصغيرة وبنيانه الهزيل . وهيئته المائلة للقبح .. أما نور فكانت كأخيها من حيث البنيان الهزيل والقامة القصيرة والظهر المحني إلي أسفل . ولكنها كانت تتحلي بنظرة ذكية متقدة ومظهر أكثر جمالاً ..

في تلك الآونة كانت مدخراتنا علي شفا النفاذ . كنت عاجز عن العمل بسبب يدي المهتزة . لم أكن مصدقاً حينما وجدت مصطفي أمامي وفي يده حافظة نقود يلوح بها في سعادة

غامرة . صعقت من المفاجأة . كنت سعيد إلي حد ما بأن هناك مصدر رزق قد فتح لنا ولكن هناك بعض من الحسرة قد تسربت إليّ . فشعرت أني أنحدر بعائلتي إلي الهاوية . وهنا تيقنت بأن الباب الموصد المفضي إلي الجحيم قد فُتح علي مصراعيه، وبات علي حافة إلتهامنا واحد تلو الآخر .

★★★

مصطفي الراوي

نسكن قاع البئر الجاف
تتجاهلنا نسمات الخريف الباردة
تدمينا حسرات الليالي المظلمة
ونثمل من رائحة الأيام
نترنح بعيداً متسترين بالليل
ونجزع من رؤية العدم ...

لم ينقشع الضباب بعد .. ذهب أحمد الراوي وجاء سليمان الراوي . ذهبت علوية الأم العاهرة وجاءت شوقية السارقة والعاهرة .. ذهبت اللوكاندة التي يسكنها الزناة وترتب فيها الليالي الداعرة .. وجاء بيت الراوي الملئ بالأعاجيب . في الأيام القليلة الماضية تعمقت أكثر في فهم ملتقي العائلة . كان ملتقي رتيب يشوبه الملل ولكنه كان به بعض من الإثارة

والكلمات ذات المعني المستتر ... الكل يتحين الهجوم شاهراً كل ما يملك من أدوات . فعند الظهيرة ينزل الجميع إلي بيت أمين الراوي علي حسب ما جرت العادة . ثم يبدأون الحديث العبثي تحت رقابة يقظة من الخالة ميري .. يبدأ الحديث عن خليل الراوي وزوجته التي لم تطأ قدمها من قبل بيت الراوي . ثم يلجأ خليل الراوي إلي الإستعانة ببعض الحجج الواهية التي لا تقنع أحداً . ثم يلتقطه أبوه في مناقشة سياسية مليئة بالتهكم علي الثورة ورجال الثورة وبالأخص جمال عبد الناصر ، وهذا ما يجعل خليل الراوي يستحضر شخصيته البرلمانية لكي يرد بإجابات دبلوماسية ليس لها بر . ولكن مع الوقت يستسلم خليل الراوي للصمت التام تاركاً الكل يعبث به ، ولا يحرك شفتاه إلا في السخرية من سليمان الراوي وأحمد الراوي . أما أحمد الراوي فكان علي سابق معرفتي به شخصية وقحة ليس لها رب . يجلس بعيداً ليلقي الكلمات المشتعلة بكل فتور وبلادة مما يجعل المستمع في حيرة شديدة من أمره . أما سليمان الراوي فكان يجلس حزيناً يتحدث عن ماضيه المثير للفخر وبين كل جملة وأخري يصب اللعنات علي جمال عبد الناصر مطرقاً بنظره نحو صفوت الراوي الذي يلتقط منه طرف الحديث ثم يصفع به خليل الراوي . أما حسين الراوي فكان يجلس متفاخراً بذاته . يجلس صامتاً تماماً ينفث دخان الغليون في وجه شباب العائلة المفتونين به . كانت تجلس هدي بجوار أختها حكمت محملقين له في

إعجاب كذلك محمود وعيسي فكانا يجلسان جاحظين لا يروا أمامهم سوي حسين الراوي رمو الفخامة والأناقة . كان حسين الراوي يلتزم الصمت تماماً ولكن عندما يسأله أحدهم سؤال ذا أهمية يصمت للحظات حتي ينصت له الجميع خاشعين ، ثم يبدأ في إلقاء الإجابة بكل هدوء ملماً بكل الجوانب . ثم بعد ذلك يصمت ويعتدل في جلسته وينفث دخان غليونه من جديد حتي ترطم به نظرات الإجلال والإعجاب . أما أنا فكنت أجلس بجوار الخالة ميري و حكمت الراوي ذات الوجه القبيح . كان الإثنان دائماً ما يتهامسن بصوت لا يسمعه أحد .

كان أبي يعود كل مساء محملاً بالغنائم . لم أكن أبلهاً إلي هذا الحد . وكان أبي يعلم ذلك ولكنه كان يتجاهل الأمر . كتب عليّ أن أقضي حياتي يتداولني المخادعين والحمقا .. كنت أري أن من الظلم أن أكون في مكاني ذلك . ما جدوي القراءة والدراسة والشعر ما دمت إبناً لأم عاهرة وأب لص .. ما جدوي كل ذلك . لابد أن أعيش كما عاش أهلي . لابد أن يسود العدل ..

الوداع لكل المآسي التي حاصرتني طوال أيام حياتي . الوداع لكل الأحزان التي داهمتني ليلاً . الوداع لكل الظنون القاتلة التي تملكت عقلي في الماضي حتي كاد الجنون يصيبني .

عدت ذلك اليوم ظافراً ألوح بحافظة النقود في الهواء . يا له من إنجاز ثمين . لن تمحي تلك اللحظة من ذاكرتي . كانت حافظة النقود مكتنزة عن آخرها ، تصطف بداخلها النقود التي سلبتني لبي . سرت في الشارع فرحاً متهللاً . و إنتقلت تلك السعادة إلي أبي عندما أخذت أقفز أمامه ممسكاً الحافظة المكتنزة في يدي . وبينما كنت أتقافز كالقردة وأرقص غنجاً شعرت بأن روحي تنساب مني تدريجياً وأن غبار المنزل العتيق يتسلل إلي داخلي فيحل محل روحي المهترءة .. كأن جدران المنزل تعانق ساكنها الجديد . شعرت بأن الحياة النقية الهادئة قد إنتهت وهوت إلي القاع ، وبدأ عهد جديد ملئ بالخداع والبلاهة ..

الحياة _ ذلك الجحيم الأبدي

تتدلي الأفواه اللاهثة

وتتسع الرقعة ليتبارز الجميع

يداهمنا بكاء الطفولة

ويتملكنا بئس الشياطين

من نحن إذن ..؟!!

من نحن ..

★★★

تأملت وجههي في المرآة .تحسست الجروح والندبات التي تناثرت علي وجهي بعشوائية .. عدلت من شعري المشعث وهيئتي المهترءة ، ثم حملت العود في صعوبة شديدة بعدما شعرت بوخز في ذراعي . ثم غادرت منزلنا مسرعاً بعدما حل المساء .. وبعد فترة ليست بكبيرة كنت قد وصلت إلي مقصدي . سرت بمحاذاة البحر من الجانب الآخر ثم إنعطفت إلي مكان ذا باب صغير يتوهج بالأنوار الزاهية . ثم تخللت المكان أسفل لوحة ضخمة عليها ثلاث حروف يضيئهم النيون وهم الراء والياء والواو ، ثم سألت النادل عن علوية الراقصة وأخبرته أنني أريد مقابلتها .. فأشار إلي شاب طويل القامة ذا جسد ضخم منحوت ، وملامح تثير الخيفة . قادني ذلك الشاب إلي حجرة علوية الراقصة . سمحت لي مساعدتها بالدخول . دخلت الحجرة التي تقطنها علوية التي إتسعت حدقتاها عندما نظرت إلي إنعكاس صورتي في المرآة التي جلست أمامها ..

ـ ماذا تريد يا مصطفي ..؟

قالتها بصوت متحشرج وهي تلون وجهها بالمساحيق ذات الألوان الفجة .. ثم إقتربت منها وانا أتطلع بنظري إلي الأرض وقلت بصوت واهن تشوبه الحدة والثقة :

ـ أريد عملاً لقد أغلقت أمامي كل المنافذ .. ولا يوجد سواكي قادر علي مساعدتي ..

ـ ولكن ..ماذا تريد أن تعمل ؟

ـ أنا بارع في عزف العود ..

ـ أذهب الآن .. وتعالي غداً بعد أن يحل المساء ..

إنصرفت مسرعاً متجنباً الجموع الثملة التي أخذت ترقص وتتقافز في كل مكان ـ خرجت من الباب الصغير بعدما إلتقطت أنفي بعض من الهواء الرطب ، ثم إبتعدت عن الصخب المدوي الذي نال من أذني الكثير ..

تجاهلت النظرات التي يملأها الاحتقار التي كانت تطعنني في قلبي في سبيل الحياة .. خلت العائلة مِن مَن يعولها ـ نفذت النقود واستكان أبي إلي الأمراض التي عاست بجسده ـ ومضت الحياة علي هذا المضض ـ كبر شريف وكبرت نور

وشاخ سليمان الراوي . وازدادت شوقية العاهرة قبحاً .. وتحطم مصطفي الراوي الملاك الزائف ..

أصبحت جسداً هزيلاً فانياً لا يقوي علي تغيير شئ . إكتفيت بدور المشاهد تاركاً العالم يدور من حولي .. إكتفيت بأن أشاهد نفسي وهي تفني في كل لحظة . إكتفيت بأن أتحسس جروح الأعوام التي أدمتني ، وأنظر إلي وجههي الشاحب في المرآة ، ثم أبكي ملقياً الدموع إلي قاع جسدي . وفي كل لحظة أتحين لحظة النهاية . أنتظر في صبر نافذ ثم أنهض إلي العمل الذي يثير حنقي ، لأري جسد أمي وهو يهتز في تناغم مع أنغام العود الغليظ أمام العيون الجائعة التي تلتهم جسدها في نهم . تتلاعب أناملي بأوتار العود في عدم وعي . لأشعر بأن الموت قد تسلل إليّ ، وعندما تختم الرقصة بالتصفيق الحاد والكلمات المدوية ، أعود إلي وعيي الزائف حاملاً العود في غير إكتراث ، أسير كالتمثال أمام الأفواه الضاحكة التي تكاد تبتلعني ..

انهي شريف المرحلة الثانوية وإلتحق بكلية التربية قسم اللغة العربية ، ثم تالته نور وإلتحقت هي الأخري بكلية الأداب قسم علم الإجتماع ..

كان شريف ذا طبيعة غليظة . كان عابس الوجه ، حاد النظرة ، ذا نظرة متشائمة إلي حد ما ولكنه كان طماعاً بصورة

ملحوظة ، كان في الصغر يختلس بعض النقود القليلة من حافظة نقود أبي ثم يدسها في جيبه ، كان يتحول إلي ملاك وهو يتوسل إليّ ألا أخبر أبي ، وعندما يأمن غدري يتحول إلي شيطان ماجن يتحلي بالمكر والفظاظة .. كان يروض لسانه حسب منافعه ، فيكون عذب اللسان عند الحاجة إلي شئ ولكن سرعان ما ينسدل الستار عن شخص ضحل ذا لسان كريه ..

أما نور فكانت علي النقيض تماماً .. فكانت عذبة اللسان ، خفيفة الروح ، مبتسمة الثغر دائماً مما يبعث في النفس الهدوء والسكينة ، كانت نور فتاة مثقفة وقارئة نهمة كما كنت أنا في الماضي ، كانت تبعثر بالكتب في كل أرجاء حجرتها ، كانت تحب أبيها كثيراً وإزداد حبها له بعدما سمعت من بين أحاديث العائلة بأنه كان أحد الظباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو . عرفت منها من خلال أحاديثنا النادرة بأنها تهوي الكتابة وتريد أن تكون كاتبة في المستقبل ..

في أحد ليالي حانة ريو الصاخبة . إكتظ المخمورين وملئوا جميع المقاعد وكان منهم من وقف لعدم وجود أماكن شاغرة . كنت أجلس علي مقعدي أعزف علي العود متوارياً خلف جسد علوية الذي أخذ يتراقص ويهتز في حرارة شديدة .. أطرقت بنظري نحو الباب الضيق فوجدت جمعاً من الشبان

الذي كان شريف أخي برفقتهم . صعقت من المشهد ، لم أكن مصدقاً لما أري . وعندما خلت أحد المناضد تناثر شريف وأصدقائه من حولها جاذبين المقاعد الخشبية بسواعدهم العتية . تداولت الكؤوس فيما بينهم في حماسة . تجرع أحدهم اول كأس فاغراً فاه مصطنعاً عدم الشعور بأي إلتهاب في حلقه . ثم جاء الدور علي شريف ، فإلتقط كأسه وتجرعه بلا هوادة غارقاً في نظرات الدهشة التي إعتلت وجه أصدقاءه . ثم أشعل له أحدهم لفافة تبغ ومنحه إياها ، فإلتقطها شريف وإلتهمها تحت شفتيه نافثاً الدخان الكثيف في سماء الحانة . لم يتغير وجهه الغارق في سماء اللذة والمتعة عندما رآني ، فقط ..لوح لي بكأسه مرحباً هاتفاً بإسمي في جنون . بينما كنت منهمك في عملي صامتاً مكتفياً بالمشاهدة المقتضبة ، ثم نهض شريف من مقعده يترنح بجسده الذي لم يثمل كلياً ، ثم إتجه نحو المسرح الصغير التي كانت ترقص علوية أعلاه ، تبعه رفقاءه وحذوا حذوه ، فأخذوا جميعاً يرقصون في عدم وعي وكأنهم قد إستحالوا إلا أشباحاً ، ثم إقترب شريف من علوية وأخذ ينظر إلي جسدها البض ، فإتسعت حدقتاه وأفاق من ذهول الخمر إلي حد ما ، أمسك بذراعها في ترحاب منها لم أتفهمه في وقتها . ثم أخذا يرقصان مصوبين نظراتهم نحو بعض . أخذ يقترب منها أكثر مقحماً شفتيه المتلهفتين في ثنايا وجهها ، وماسحها جسده في أطرافها عامداً . إعتراني

الغضب ولكن في صمت مطبق علي كل أفعالي ونوازعي . لم يعد لي جدوي في الحياة ..

عندما ينقشع اللون الذهبي منذراً بالغروب

تتسلط شهواتنا وتتضاعف الذنوب

أتطلع فجأة نحو السماء الملبدة بالوعيد والدماء

ثم أطرق بنظري نحو الهياكل العظمية الهزيلة..

أستنشق شذاهم .. ثم أبادر بالفناء ..

ليموت تاريخي ضائعاً خلف الثيران الصاخبة

تضاعفت مرات مجئ شريف نحو حانة ريو باعثاً في داخل علوية فرحة متوارية خلف ملامحها الشاحبة . لم ينسدل الستار عن هذا السر بعد ..

في كل مرة . يدخل شريف الحانة متهللاً وفرحاً برفقة أصدقاءه الذين أخذوا يتناقصون في كل مرة حتي إختفوا تماماً . يدخلون في صخب ، ثم يملؤون مقاعدهم مضرمين فيها نار الحيوية و الشباب ، ثم يبادر شريف بتحية علوية بتلويحة كأس ، ثم يتجرع الكأس تلو الآخر حتي تموج رآسه مع الرفقاء المخمورين ، وبذلك يقف عاجزاً عن الإعراض عن

جسد علوية المتناغم مع دفقات المزيكا المنهالة عليها ، ثم يعتلي المسرح بادئاً رقصته برفقة علوية التي في كل مرة تزداد نظراتها نحوه الإعجاب والدهشة باعثة لقلبي الريبة و الخوف .

ذات يوم إسيقظت علي أصوات صاخبة تعتلي كل شئ ، نهضت من فراشي بينما وقف سليمان وشوقية يتصارخان بعبثية ووقفت نور بجوارهم واجمة . إلتقط جدي ورقة كانت موضوعة علي المنضدة التي تناثروا من حولها ثم فركت عيني بقبضة يدي حتي أفيق من نعاسي ، ثم أمعنت النظر وبدأت أتلو فحوا الورقة

" لا تقلقوا ولا ينتابكم الخوف عليّ . فإنني قد تزوجت مِن مَن أحبها قلبي . وسأعود في وقت لاحق . ودمتم في آمان الله "

يا لك من شاب ملعون . ألقيت بالورقة في أحضانهم وهرعت نحو حجرتي ، إرتديت ملابسي ثم عدوت إلي الخارج تاركاً شوقية وسليمان يذرفان بالدموع . أخذت طريقي نحو حانة ريو مكبلاً ظنوني الدفينة التي أعلم أنها الحقيقة الكامنة . عدوت إلي الداخل وبحثت عن علوية في كل أرجاء المكان

ولكن دون جدوي . ثم عدت إلي منزلنا حتي أزف الخبر المدوي . وبعد ذلك عدت إلي الحانة مرة أخرى . وهنا أدركت حقيقة الأمر اللعين . كدت أخر صريعاً وإنتابني دوار شديد ، فإتكأت علي أحد المقاعد وأخذت أبكي بشدة وأصب اللعنات علي هؤلاء الأوغاد . أخذت أحتسي الخمر لأول مرة في حياتي المليئة بالمآسي والأحزاء . فالخمر دواء المنبوذين ..

أخذت أتجرع الكأس تلو الآخر حتي غاب عقلي . وعاس الجنون برأسي . لا أعلم هل هذا كان نتيجة الخمر أما أن عقلي قد ذاب فعلاً بين طرق حياتي المنذرة بالجنون والتمرد . خرجت من الحانة خائر القوي لا أري شيئاً من حولي . إتكأت علي الجدران بعدما سقط علي الأرض . حملت العود ثم ركضت نحو الجانب الآخر في جنون بعدما كادت ترطم بي أحد العربات . وقفت أمام البحر واجماً لا أراه . فقط . تتخل أذني أصوات إرتطام الأمواج ببعضها . كانت ليلة شديدة الظلمة وكأن القمر قد إختلس هذا اليوم للعطلة .. ثم عاودني البكاء من جديد وكأني لم أكتشفه سوي اليوم . بكيت كمن لم يبكي في حياته . تراءت أمامي كل عثرات الماضي الموحش . تلك الأيام التي وطأت فيها كرامتي ودهست فيه أشعاري . تذكرت حياتي في لوكاندة العاهرات ، تذكرت يوم خروجي منها بعدما إعتليت أمي دون وعي ، وتذكرت يوم سرقت وتسولت كسرة الخبز حتي يعيش أبي اللص وزوجته العاهرة التي علمته تلك الحرفة الضحلة ، ثم تذكرت العود وهو يعزف أعذب الألحان

لكي يتراقص عليها جسد أمي ليراه الجميع بعيون معدومة الخجل .

رفعت العود إلي أعلي ثم هويت به علي حافة أحد الصخور . كررت الأمر عدة مرات حتي صار فتاتاً ضئيلاً . ثم إعتليت الصخر ونظرت بعيداً نحو القمر المتواري خلف السحب الكثيفة . ثم هممت بالقفز في مياه البحر الباردة ، لكي تجرفني أمواجه الهادرة إلي أقصي بقعة في ذلك العالم ، إلي مكان يصعب علي الجميع فيه معرفة تاريخي البائد . وليكن المستقبل الدامس من نصيب شخص غيري . فقد تكالبت عليّ كل الصعاب حتي تهدمت قواي وهزلت عزيمتي . اللعنة علي هذا العالم . اللعنة علي عائلتي المتناحرة ، فاليصيبكم الجحيم الأبدي حتي تفني أجسادكم وأسماءكم ..

★★★

حكمت الراوي

دخل فهيم برفقة صديقه حلمي ابو الوفا في إرتياب شديد . قطعوا الطريق نحو الحجرة علي أطراف الأصابع خشية أن يراهم أبي أو أمي أو أحد ضيوفهم المتكدسين بحجرة المكتب ، نظر حوله مؤمناً ثم تخلل حجرته برفقة صديقه ، ثم أحكم غلق الباب تاركاً الحجرة علي سابق حالها قابعة في ظلام دامس . تعالت الهتافات وإحتدم النقاش في حجرة المكتب التي هاجت بصخب شديد . ذلك الصخب الذي توارت خلفه هدي مطمئنة لمزلاج الباب وكعب حذائها شديد الصلابة . قطعت الطريق نحو حجرتها علي أطراف الأصابع ، حتي دخلت الحجرة وأحكمت غلق بابها .. سمعت صوت هدي يتسلل إلي أذني فخرجت من حجرتي وألصقت أذني بباب حجرتها :

ـ نتقابل غداً يا حبيبي ..

لفظتها قبل أن تطبع قبلة وقحة علي سماعة التليفون مصدرة صوت متحشرج نتيجة إرتطام شفتاها بالسماعة ، ثم أودعت السماعة مكانها وأخذت تدندن بعض الاغاني . في تلك اللحظة خرج فهيم من حجرته التي غمرتها رائحة السموم . خرج بوجه باهت وعين زائغة لا تري أبعد مما يراه الأعمي .

تخللت أناملة شعره المشعث عندما رآني منتصبة أمامه . إرتبك بصورة كبيرة وانعقد لسانه .

ـ ححح...حكمت ! نحن نذاكر ..انا وحلمي ..

تعالي الضجيج الصادر من حجرة المكتب مما جعلني أخرج من وجومي وأعود إلي حجرتي ..

بعد فترة صغيرة سمعت صوت هدي تخرج من حجرتها ، بينما تعالي صوت قرقعة حذاء في الخارج ، فتحت الباب برفق نظرت بالخارج في حذر فرأيت رجلاً في الثلاثين من عمره ذا مظهر أنيق وقسمات حسنة يقف مع هدي ويهمس لها ضاحكاً ناظراً حوله في إرتياب ، ثم دفع هدي نحو باب الحمام الموصد فأدخلها ودخل هو الآخر محكماً غلق الباب . فأغلقت باب حجرتي غير مصدقة لما يجري في منزلنا . إنتابني الخوف من ناحية أن أفشي لأبي و أمي ما رأيت . لا أعلم هل هو الخوف ام رغبة مني في الإنتقام . فقد آنت الأيام لحكمت الدميمة ذات المظهر الضحل بأن تثأر لنفسها .

★★★

منزلنا .. ذلك المكان المباح فيه ممارسة اي شئ يخطر علي الذهن . تربة خصبة لنشأة المذنبين والخطاة . فما عليك إلا أن تفعل ما يحلو لشهواتك ونوازعك الضحلة دون إنتظار لجزاء او عقاب . أعتقد أن لو كان الموت قد إبتلع أبي ثم أمي لكنا أحسن حالاً من الأن . لم يكن لدي أبي أو أمي ادني وقت ليتابعوا ما يجري في منزلهم . موطن الذنوب . كان أبي قد وهب كل حياته للعمل . لا يترك لحظة واحدة بدون ثرثرة . فكان في الصباح يدون المقالات في الجريدة وفي المساء إما يجلس في حجرة المكتب يثرثر بكلامه و أفكاره علي الورق أو يجتمع بالرفقاء والأصدقاء والمفكرين والكتاب ، كانت حلقات المناقشة تطول إلي آخر الليل ، ثم ينصرفون بعدما تنضب الكلمات من علي شفاهم ، وتنعدم جدوي هتافاتهم الصاخبة بجانب آذان الفجر .. في بعض تلك الحلقات كنت أجالسهم بعض الوقت . كنت أصغي بهمة ودأب حتي أتيقن من أنهم لا يقولون شئ . مظاهر لامعة براقة ، ووجوه متجهمة زائفة ، يتداولون الحديث بنبرة ثورية عن شطحات في الدين ثم ينتقلوا إلي أحاديث سياسية غير مجدية وغير واقعية . ثم ينتقلون إلي ترهات فلسفية أقرب إلي العبث منه إلي الفكر .

ولكن في النهاية الجلسة يغلفها العلم الزائف والفكر المثقل بالجهل المتقع والهتافات الحماسية الخالية من المعني .

تقبل أبي خبر موت فهيم في حزن زائف أقرب إلي عدم الإكتراث . مات فهيم نتيجة الإسراف في تناول المخدرات . أما أمي فقد ذرفت بدموع لم أصدق قطرة واحدة منها ، فقد باتا الإثنان أقرب إلي التماثيل الجامدة التي لا تشعر ولا تتذوق . فقد تجمد الدم في عروقهم وتثاقلت عقولهم وإعتلي الصمت جميع حواسهم . أما أنا فلزمت حجرتي صريعة أعاني الهزيان منتظرة لحظة السقوط إلي الهاوية في صمت من يتمعن المشاهدة ، تلك اللحظة التي يملأني يقين تام نحوها .

ذات يوم بعد وفاة أخي بعدة شهور . خرجت من حجرتي بعدما تسلل إلي أذني صوت أمي وهي تصرخ بشدة ، عندما خرجت رآيتها تمسك بتلابيب هدي وتركلها بالجدران حتي سقطت أرضاً وهي مجهشة في بكاء شديد لم تبكيه من قبل . في تلك اللحظة دخل أبي من باب المنزل وفي يده كتابين وحزمة أوراق وفي يده الآخري يحمل غليونه ، نفث سحابة كثيفة من الدخان حولنا قبل أن تزف إليه أمي أمر هدي .

ـ حسين

ـ ما بكِ يا إلهام .. ماذا حل بكم ..

قالها متطلعاً إلي هدي الملقاة بجوار الجدار مشعثة الشعر باكية .

ـ إبنتك هدي حامل ..

زفرتها وهي تصرخ في وجه أبي .

إتجه أبي نحوها في خطوات هدأت الصدمة من سرعتها . ثم دنا منها ممسكاً بأطراف شعرها الكثيف الذي ترامي في كل مكان .

ـ من فعل بكِ ذلك .

لم تحر جواباً ولم تنبس ببنت شفة . ظلت صامتة أمام هذا السؤال لأيام وشهور وسنوات . وكأن في الأمر سر خطير يصعب عليها إفشاءه . أظن أنها لا تعلم أيهم كان الأب ..

وفي احد الأيام التي تلت ذلك الحادث الذي حل بأختي هدي . جاء عيسي الراوي لزيارتنا ، تخلل البيت بكرسيه المتحرك الذي ي قرقعة مزعجة ، كان أبي واجماً يعبث بصورة عيسي الراوي بنظرته الهائمة المتحجرة ، أما أمي فجلست مضطربة لا تجد ما تقوله بوجهها المصفر ، وعيناها التي تجمدت

الدموع فوقهم وتكتل الأسود المعتم أسفلهم . رحبنا به عاجزين علي الحديث . كنا علي شفا الإنفجار باكين ، فما كان علي عيسي الراوي إلا أن يسأل ما بكم لنخر أمامه مرتلين بكل ما حدث . كان أبي متماسك من الخارج ولكنه كان هش من الداخل بصورة كبيرة . بادر عيسي الراوي بالحديث قائلاً في صوت ملأه الحزن :

ـ لقد علمت ما حل بكم يا عمي ..

هنا صرخت أمي باكية بينما سمعنا صوت نحيب هدي المتحشرج من حجرتها .

ثم أكمل حديثه قائلاً :

ـ لقد جئت هنا اليوم في أحد الأمور . تفكرت كثيراً ولم يرشدني الله إلا لهذا السبيل . فإني جئت اليوم لأطلب يد هدي لكي تكون زوجتي علي كتاب الله وسنة رسوله .

لم نصدق ما سمعنا فقد وجمنا جميعاً وإعتلانا الذهول . زفرت أمي مخاط أنفها في منديل ورقي ثم محت دموعها قائلة في تماسك :

ـ موافقون ..

قالتها أمي قبل أن يلتهمها أبي بنظرات ذات معني ولكنها سريعاً ما تلاشت من علي وجهه .

وتزوج الإثنان في أجواء بعيدة كل البعد عن الفرح أو السعادة . وسارت هدي إلي بيت الراوي في صمت تام . لا أعلم ما الذي دفع عيسي أن يفعل ذلك ولكنها الحياة .

خلا بيتنا تماماً بات أشبه ببيوت الأشباح . عاد أبي إلي سابق عهده كما عادت أمي . أما العلاقة بينهم فقدت تدهورت بصورة كبيرة . شعرت بنظرات الكراهية والعدوان تعتلي وجه أمي . شعرت بأن الإحساس قد نزع من قلبها نزعاً ، فباتت قاسية إلي أقصي حد . لا تراني أمامها ولا تري أبي وكأن صلة القرابة التي تربطنا قد تمزقت إلي الأبد .

فباتت لا تعرفنا .

في أحد الأيام كان أبي وأمي مع رفقاءهم في حجرة المكتب يتحادثون ويتجادلون . كنت قابعة في ظلام حجرتي أقرأ في أحد الكتب . في تلك اللحظة مرقت أمي من أمام باب الحجرة ، ثم سمعت صوت أحد يقترب من حجرتي ذاهباً في طريق أمي ، فإقتربت من الباب وجذبته نحوي برفق ، فرأيت من تلك المسافة الصغيرة رجلاً خمسيني يفترش الشيب شعره القليل ذا جسد جسيم وقامة طويلة ، وله وجه حسن إلي حد ما .

وقف ذلك الرجل في إرتباك تعتليه نظرات الاضطراب والقلق . ثم إقتربت منه أمي وهمست في أذنه بكلام مبهم ، ثم نظرت حولها مطمأنة ، فأغلقت الباب سريعاً حتي لا ترطم بي نظراتها ، وقفت خلف الباب للحظات حتي سمعت صوت باب الحمام يغلق ، فخرجت مسرعة نحو الحمام وألصقت أذني ببابه وإذا بصوت أمي يتهادي بالداخل بجوار صوت غليظ أجش . سمعتها تضحك بصوت واهن وتتأوه متغنجة . عدت إلي حجرتي إرتميت علي أرضها باكية أساءل نفسي في غضب وثورة .

ـ ماذا حل بمنزلنا . ؟!

★★★

أحمد الراوي

يتعمد الاشخاص الذين مال إليهم قلبي وجوارحي بأن يفروا من تلك الحياة مخلفين ورائهم سراديب من الذكريات المكدسة فوق بعضها التي لا تمحي أبداً ولا يكتب لها النسيان . مات أمين الراوي ثم إبراهيم الراوي ثم أم حميد . تلك المرأة التي شهدتها طفلاً لا يعي و كهلاً لا يقدر علي اشياء كثيرة . حزنت لموتها مثلما حزنت علي .. لا.. لم أحزن علي موت أحد في حياتي كما حزنت علي موتها . ولكن ذكراها لن تمحي من ذهني ، بوجهها الدميم المثابر المصمم علي الحياة ، وصدرها المتهدل الصغير الذي روع قلبي منذ الصغر ، وجسدها المترهل رغم النحافة ، وقدماها العفنتان التي كنت أدركهما في عهد الطفولة بأنهما تؤولان لكلب لا لأنثي . لن أنساكي أبداً مهما طالني من فقدان ذاكرة او شيخوخة . ستظل صورتك عالقة في غياهب عقلي لا تندثر ولا يجرفها تسارع الايام ..

كنت أجلس في عزاء ام حميد أجهش في بكاء شديد جذب إنتباه البعض إليّ . كان الرجال قليلون مقارناً بالنساء التي أخذت تهطل علينا من كل مكان مزدانين بالدموع والسواد . تعالي الصراخ والنحيب من أعلي . وبرزت أجواء الحزن من سرادق العزاء ومنزلهم بالأعلي . لم أري بناتها قط بعد الجنازة . كانوا غارقين صباحاً في بحر من القيظ الحارق والحزن الموحش . كانوا مندسين في الجموع البائسة لا يرون شيئاً من حولهم . أخذت صفية تبكي بحرارة مما جعل الجميع يهدئون من ثورتها ويواسونها ببعض الآيات التي تلقي السكينة في القلوب . أما مديحة فكانت متماسكة بعض الشئ بنظارتها السميكة المعتمة التي أخفت عيناها تماماً . أما سناء فقد إنفجرت صارخة تهتف بإسم أمها في كل مكان كأن الجنون قد تلاعب برأسها . ألمني منظرها بعيناها التائهتان في بحر من المآسي والأوهام وقوامها الممشوق . أما فهيم فقد حمل النعش الذي كاد يسقط فوقه لشدة نحوله و هزال بنيانه .

★★★

وهأنذا أقطع شارع المحافظة عائداً إلي نقطة البداية التي سعيت جاهداً طوال حياتي في أن أبتعد عنها إلي الأبد سالكاً

كل الطرق البريئة والدنيئة . هاهي حياتي تعود إلي عهدها البائد التي إمتزج فيها الفتور بعدم الرغبة في الحياة . هاهي تعود بي بعد أن أطحت بكل ما قد يجعلني أذكر الماضي . هاهي تعود بعد أن إستكانت روحي إلي الخلاعة والعربدة وإرتكاب الحماقات .

أطرقت بنظري نحو مقهي الراوي العتيق الذي ظل إسمه كما هو . تطلعت إلي الباب الصدأ والنوافذ العملاقة ، ثم شعرت بوخز يدرك ذراعي اليمني ثم اليسري ، فألقيت بحقيبتي الجلدية إلي الأرض ودنوت بخصري النحيل منها ، ثم تمددت بجانبها محدقاً في مقهي الراوي الذي مازال منتصباً في صلابة وتصميم رغماً عن أنف تلك السنين التي فتكت بالجميع . بعد لحظات كنت قد ذبت داخل ثناياها العتيقة التي يسيل منها عبق الأعوام البائدة و الأيام القليلة الهانئة . وكأن الماضي بكل ما فيه قد فر من رأسي ملتصقاً بجدران المقهي . رأيت أمين الراوي غارقاً في مقعده الوثير في كل شموخ وهو يدخن نارجيلته . رأيت سليمان وحسين وخليل يتسامرون برؤوسهم المدلاه من النافذة . رأيت إلهام نشأت تمرق خاطفة كل الأعين . رأيت علوية تتخلل المقهي ليلة الثورة . رأيت نفسي جالساً في مقعد أبي أراقب ما يجري فقط . تشوشت الصور القديمة في ذهني عندما شعرت بأنامل خشنة جوفاء تلامس جسدي المتهدم ، نهضت مسحوباً في يد حقيبتي المثقلة ثم نظرت خلفي ، فرأيت محمود أمامي ببذلته

العسكرية ونظرته النافذة إلي القلب وإبتسامته التي لا تنضب ولا تخلو منها الأيام . غمرتني سعادة حقيقية نادراً ما شعرت بها . تعانقنا في حرارة جعلت جميع العيون تتجه نحونا ، ثم هطل علينا الجيران والرفقاء من حيث لا ندري حتي أحالو بيننا ، منهمكين علي الطرف الآخر في عناق وقبلات وترحاب لا يوصف . وقف المارة يتطلعون ما يجري حتي بات الأمر وكأنه مظاهرة طلابية أو إعتصام لعمال أحد المصانع . ثم إنتزعته عنوة من بين الناس التي تكدست من حولنا ،أمسكت بيده المعروقة وأخذت أتطلع إلي مظهره الرائع . كان ذا قامة طويلة وبنيان قوي ، وقسمات حسنة بعيناه الواسعتان المكحلتان وشعره الأسود الممشط بعناية وفمه المنبسط التي تتواري من خلفه أسنان بيضاء متراصة بعناية . سرنا سوياً نحو المنزل ، بينما كان مصطفي الراوي آتٍ من الشارع المقابل لنا من ناحية محطة القطار و المسرح الروماني . أبطأنا الخطا حتي مال علينا مصطفي وعانق محمود ورحب به في ود وصفاء ، ثم صعد محمود إلي المنزل تاركنا نتجرع كأس الهوان سوياً . لم أري مصطفي الراوي من قبل علي تلك الحال ، كان وجهه شاحباً يتطلع العالم بنظرات زائغة ، والأسود القاتم يفترش أسفل عينيه بصورة ملحوظة ، ولحظت إنفعالات وجهه تتشكل بصعوبة وكأن هناك من يسكن روحه بدلاً منه ويأمره بإيماءات معينة وحركات معينة يؤديها . شعرت بإندماج صورتنا في عملة واحدة عندما لمحت نظرات

الجنون تطل من عينيه المحمرتين . لا يمسك بالمجانين الجدد إلا المجانين القدامي .

قلت له مبتسماً إبتسامة فاترة تشبه ما صدرت عن ملامحه :

- لم تجدها ..؟

- نعم ..فرت بعدما تزوجت من شريف أخي ..!

قالها شريف بعدما تعالت ضحكاته التي توشي بقلب مهزوم وروح متحجرة

- جاء اليوم مالك اللوكاندة الجديد .. إستلمت النقود بعدما أتمت عملية البيع ثم سارت إلي مكان غير معلوم .

زفرتها مغتاظاً متصنعاً الثبات والتماسك من خلال الضحك الصاخب المتعالي الذي بادر به مصطفي ..

ثم صعدنا الدرج متأبطين ذراعينا ، نهتف ضاحكين في جنون :

- ماذا حل بنا ..؟!

صعد مصطفي إلي منزله مباشرة كي يزف لأبيه خبر زواج أخيه .أما أنا فقد تخللت باب شقتي وجالست محمود الذي إلتهمته أمه وجدته طابعين علي خديه قبلات كادت تفقده الحياة . في تلك الآونة لم يحل عيسي في ذهني فقد كنت مشدوهاً من عودة محمود . سألت عنه محمود الذي بدا علي

وجهه الجهل التام بالأمر ، ولكنه هدأ من حدة الأجواء قائلاً في ثقة :

ـ بالطبع سيعود لنا بخير ..إن شاء الله .

ولكن بالطبع تلك الكلمات لم تصرف نظرة الإرتياب من علي وجه فاطمة التائه . أما أمي فكانت مبتسمة هادئة ...

مرت أيام عدة من دون أن نري فيها عيسي . لا يعلم أحد شئ عنه . كل الدلائل والأخبار تقول بأن الحرب قد إنتهت بالإنتصار وعودة جيشنا الباسل ظافراً ً فأين قد ذهب عيسي الراوي . هل يمكن ان يكون قد مات أثناء الحرب ، ولكن حتي هذا الخبر لم يعلن حتي الآن . فهل هو علي قيد الحياة ام وقع به أذي ..؟

وبعد عدة أيام كنا جالسين جميعاً بشقتنا واجمين . بينما تعالت الجلبة في الشارع وصخبت الآذان بهتافات غير واضحة ، ثم سمعنا صوت طرقات علي باب شقتنا ، هرعت نحو الباب واثباً علي شيخوختي التي تملكت جسدي ، ثم فتحت الباب وإذا برأس عيسي تدنو إليّ بنظرات يشوبها الحزن والآسي ، ثم أمسكت برآسه بين كفيّا وأنهلت عليها

بالتقبيل الحار ، إختلطت دموعنا الغزيرة ، بينما هجم الجميع نحونا يجذب عيسي إلي الداخل . جذبه محمود من ذراعه إلي الداخل في ظل ذهول من الجميع . صرخت إلهام نشأت ومن خلفها هدي إبنتها . بينما صعقت انا وأمه وأخيه محمود عندما رآينا قدمه المبتورة والعصاتان التان يتوثب بهما من علي الأرض . شهقت فاطمة بعمق ووقفت مشدوهة ترجع بظهرها إلي الوراء . وتبادلوا زوجات أعمامي يوسف الراوي وصفوت الراوي البكاء والنحيب . تأبطت كتفه الأيمن وحمل محمود ذراعه الأيسر حتي أجلسناه علي أحد المقاعد . جلست أمي بجواره باكية واخذت تودعه قبلات دافئة وتجفف الدموع من علي عيناه . تناثرنا من حوله واجمين باكين تعتلينا الصدمة ويفترش الحزن ملامحنا التي تلونت باللون الرمادي الشاحب .

قال له محمود بصوت واهن وهو يجلس بجواره علي مقعد آخر :

ـ ماذا حدث لك يا أخي . ولماذا غبت عنا كل هذه المدة ..

تطلع عيسي وجوهنا الذابلة وعيوننا المصوبة نحوه وأفواهنا الموصدة باحكام حتي يشرع في الحديث مطمئنا لحسن الإصغاء .

ـ لقد حوصرنا تحت سطوة القوات الإسرائيلية بعدما تم قطع الإتصال بيننا وبين شبكات الدفاع الجوي وبذلك قطعت كل

الوسائل التي قد تساعدنا علي الفرار بالإضافة إلي تدمير جميع معداتنا .. وبذلك باتت قواتنا قوات الجيش الثالث التي كانت تضم خمسة وأربعون ألف ظابط وجندي تحت وطأة القوات الإسرائيلية وبرقابة من القوات الجوية الإسرائيلية التي غطت السماء من فوقنا بالكامل . بعد ذلك منعت عنا كل مواردنا من طعام وشراب ودواء ومستلزمات صحية لتضميد الجرحي . وصرنا هكذا لعدة أيام حتي كدنا نموت جوعاً . حتي سمحت لنا القوات الإسرائيلية بالقليل من الموارد التي بالكاد لم تسد حاجتنا كاملة . أما بالنسبة لقدمي المبتورة فقد طارت أثناء القتال . أخذت أزحف علي بطني أتدور ألماً حتي حملني أحد الزملاء ..

ـ نحمد الله علي عودتك سالماً .

قالها خليل الراوي بصوت هادئ لا يشوبه أي حزن .

ثم قال محمود في تساءل :

ـ يا أخي .. نحن ظفرنا بنصر عظيم سيخلده التاريخ هاتفاً بأسماؤنا في جميع أرجاء العالم .

ـ نصر ..!

زفرها عيسي في يأس قاتل .

ـ نعم لقد إنتصرنا .. وهذا لا ينفي أن لكل حرب خسائرها في الأفراد والثروات والعتاد .

لوكها حسين في فمه في صوت بليغ ناظراً للجميع حتي يتأكد من الخشوع التام الناتج عن الإصغاء لنظرياته البارعة واحاديثه الشيقة .

ثم قال صفوت الراوي قاطعاً صمته :

- لقد هُزم الشعب .. وانتصرت الثورة ورجالها ..

تطلعه الجميع بنظرات الإستنكار . قبل أن يهم بالمغادرة قائلاً في صوت بليغ جاء من قاع داخله ، رانياً برأسه نحو خليل الراوي :

- لن تنتهي المأساة حتي يموت آخر ظابط أمن بتلك الثورة وأعانها وشارك فيها .

إبتسم حسين الراوي إبتسامة فاترة قائلاً في صوت هامس :

- باتت السياسة مشاع للصعاليك والعامة ..

★★★

لم يعد لملتقي العائلة أية جدوي ، فقد شاخت جذوره وتساقطت أوراقه تباعاً . فالجيل القديم تمكنت الشيخوخة والعجز بأن تدب فيه وتسري في أوصاله . أما جيل الأبناء فقد أضرمت فيه النيران حتي تأكلت أجزاءه ، لم يعد ذلك الجيل

كما كان ، فقد شارف علي منتصف الأربعين وانطفأت جذوته التي كانت تضرم النيران في أجواء الملتقي لتثور الأحاديث الحماسية و الآمال المنشودة والأفكار البارعة ، وتدور النكات وتعلو الضحكات . أما الآن فقد تغيرت وجهة هذا الجيل . أما جيل الأحفاد فقد حاق به ما حاق بالجيل الذي سبقه . فقد دب فيه اليأس والحزن إلي أبعد مدي . مات أمين الراوي ثم إبراهيم الراوي ثم مصطفي الراوي ، غادرت المنزل قبل أن يغادره شريف الراوي . غادرت المنزل وعدت بعد أن أصبحت قواداً ماهراً معدوم الشرف .. وما أكثر معدومي الشرف في العائلة ..

إحتواني بيت الراوي كما إحتوي المقعد المتحرك الغليظ جسد عيسي الجندي البائس .. بات محمود هو العاءل الوحيد للعائلة . تخرج عيسي من كلية الحقوق الذي إنتسب لها عن عشق كامن في داخله . كان أحد آماله في الحياة بأن يعمل محامياً ويبرز إسمه ، ولكن كل شى قد فنا بفناء قدمه وفناء النصر الأكيد . تطلعت إليه في ألم . وإذا به يجلس علي مقعده يشمر عن بنطاله حتي الركبة ، يتطلع إلي التلفاز في نظرة واجمة يملأها الحزن والألم .إزداد جسده نحولاً و برزت عظام وجهه بعدما تسلل التبغ بدنه . لم يكن عيسي يدخن التبغ في حياته ، ولكنه بات الآن مدخناً يكاد يبتلع لفائف التبغ من شدة

شراهته . بات شيئاً غير مجدياً لا يقدم شيئاً ولا يؤخر شيئاً . أشبه بتمثال خشبي . بتنا عبئاً علي محمود الذي كان يعمل وحده بكل كد لكي يعولنا . فيأتي بلفائف التبغ لعيسي الذي ينهيها بلا أدني إكتراث ويثقل البيت بالطعام والشراب وكل المستلزمات . رغم كل شئ كنت أشعر بألم ينخر في قلبي عندما أري شريف داخلاً البيت حاملاً كل الأغراض بينما أنا جالس لا أعمل . فقد ضاع كل شى بعد بيع المقهي ومن بعدها بيع اللوكاندة وفرار علوية العاهرة الحمقاء .. ولم تقف المشكلة عند هذا الحد .. ففي أحد الأيام خطرت لي فكرة أن أذهب إلي حسين أخي وأطلب منه أن يجد لي أي عمل بإعتباره صحفي شهير . وعندما وصلت إلي منزله وقبل أن ترتطم قبضة يدي بالباب سمعت أصوات صاخبة تتعالي بالداخل . أصغت إلي الأمر كله ثم عدت من حيث جئت ، كنت أعلم أن هدي ذات أخلاق معدومة خاصة بعد أن تقابلنا في اللوكاندة من قبل . وكان فقد عذريتها هو النتيجة المحتومة لأفعالها الداعرة وحياتها المتحرر . وعندما عدت تداولت ذلك الأمر مع فاطمة التي ذهلت عندما سمعت . وفي اليوم التالي تفاجأت بعيسي يطلب بأن يزور عمه حسين الراوي . ثم نزلنا سوياً وقدته إلي منزل حسين . وكدت أخر صريعاً عندما سمعت عيسي يطلب الزواج من هدي . لم أصدق ما جري فوقفت مشدوهاً أتطلع وجه حسين الراوي الذي غلفه الحزن وهو يستسلم لقبول الزيجة .

تزوج عيسي من هدي وإزداد الجمع العاطل شخصاً إضافياً .
أنجبت هدي إبنها الذي أل إلي عيسي بطبيعة الأمر . بعد ذلك نزلت هدي إلي العمل بعد أن قبل عيسي . فعادت تبتاع جسدها من جديد أمام أعين عيسي الراوي الذي إستحال إلي شبحاً او شبه إنسان . لاذ عيسي بصمت تام غارقاً في دخان تبغه . يحترق معه في كل لحظة .

★★★

سليمان الراوي

أخذت تهطل زخات المطر علي زجاج نافذة الغرفة . ولمع سيف البرق في السماء . بينما تخللت البرودة المنزل الذي خلا علينا الإثنان . انا وشوقية . مات مصطفي ملقياً بنفسه في البحر الهائج الذي لم يتواني في الإجهاز عليه . أما شريف فقد فر وتزوج من علوية العاهرة ولا أعتقد أنه سوف يعود إلي هنا مجدداً ، سوف تنسيه كل شئ عنا كما فعلت هي مضت هاربة في طيات الليل ومن ثم مع أحمد الراوي ومصطفي الراوي . أما نور الذي خطفت قلبي معها فقد إحتوتها أسوار السجن العالية مساء هذا اليوم . لم أتمكن من صد هجمتهم الغادرة ولكني لذت بالصمت ذلك الدواء الساحر الذي تكمنه الراحة الأبدية .. إستيقظت في الخامسة صباحاً والهلع يغلفني . تعالت طرقات الباب وكأنها تطرق رأسي . ثم في غضون دقائق كانوا قد قادوها إلي الخارج وأركبوها سيارة معتمة ثم ذابوا في الضباب الكثيف الذي غلف كل شئ في تلك اللحظة ..

★★★

فتحت عيني برفق وأنا عاجز عن لفظ أنفاسي . زفرت نفسا ثقيلاً كان جاثماً فوق صدري ، ثم إزدردت ريقي بصعوبة بالغة . لم أري أي شئ من حولي كنت نائماً في بقعة ضيقة ومظلمة لا أعلم ايٌ من معالمها . رفعت رأسي إلي أعلي كي أنهض ولويت خصري ورفعت آليتي إلي أعلي ، فإرتطمت رأسي بقوة في جسم صلب شديد المتانة جعلني أفترش الأرض كما كنت . ثم شعرت بحركة خافتة لها طنين هادئ في أذني ، ثم شعرت بخطوط الضوء تتصل ببعضها لتتسلل إلي تلك البقعة الداكنة لتنير ثناياها. وفجأة أنير المكان بواسطة مصباح واهن وازيح الجسم الصلب من فوقي لتتطلع عيني السماء الذي لونها الظلام التام ، ثم تدلي من فوقي رأس رجل غليظ طاعنٌ في السن يحمل مصباحاً ، و علي وجهه الباهت إبتسامة لا توحي بأي ود ، إلتهمني بعينه الجاحظة ثم قال في صوت نافذ إلي الأذن مقرباً المصباح منه :

ـ اليوم هو التاسع من يناير .. لن تظل هنا ولكن العام القادم في نفس الساعة ستلتقطك تلك البقعة المظلمة التي يحول

بينها وبين الجحيم خطوات حثيثة . ولن تخرج منها أبداً وستنقبض أنفاسك حتي تفني روحك .. تذكر ولا تنسي ..

ثم أزاح ذلك الجسم الصلب في إتجاهي إلي أن غطا تلك البقعة التي كنت أقطنها ، وأحال بيني وبين الهواء النقي بالخارج ..

ثم إحتواني الظلام إلي الأبد ..

فتحت عيني برفق وشعرت بجو الحجرة الخانق يحتويني . الظلام لم ينجلي بعد ولكنه بات أشد وطأة من ذي قبل . تنفست الصعداء بعدما شعرت بأني مازلت حياً . نهضت من مخدعي متهالكاً أترنح يميناً ويساراً . أرتطم بالجدران ثم أستعيد صوابي ، إلي أن تخللت حجرة نور إبنتي . كانت جالسة علي المكتب تحت مصباح صغير ذا ضياء واهن لا ينير سوي صفحات الكتاب التي كانت تتصفحه . ثم جلست علي حافة فراشها وقصيت عليها ذلك الحلم الذي حلمت به . رأيت ملامحها تنقبض قليلاً . ثم قلت لها بصوت متحشرج وهي غير مصدقة ما تسمع :

ـ نور .. أريد أن أكتب قصة حياتي ..

ذلك الأمر الذي لم يجئ إلي رأسي أبداً . كنت متوجساً من أن ينسي الناس أنني كنت أحد الظباط الأحرار ولا يستقر في أذهانهم إلا أنني قد أصبحت لصاً يسرق ما لا يملك ويروع

الناس . خاصة بعد معرفتي بفناء عمري ذلك العام . لا يبقي أمامي إلا تلك الأيام القليلة . تأرجحت نور بين القبول والإعراض ولكن هواها بالكتابة منذ الصغر جعلها تبتلع الفكرة وتستثيغها . وبعد لحظات وهي تتطلع وجههي الشاحب الذي يعلوه الحزن أعلنت قبولها . وبدأنا العمل من غد ذلك اليوم . كنت أدخل لها في حجرتها كل يوم وأطرح عليها في كل يوم جزء صغير من حياتي . بكل ما يحمله الماضي من إنتصارات وانهزامات . في بعض الايام كنت أخرج من حجرتها بائس أذرف الدموع . وفي بعض الايام كنت أخرج سعيداً متهللاً . وتلك هي الحياة تارة تضحكك حتي الثمالة وتارة تبكيك حتي الموت . وفي نهاية هذا العام كانت قد إنتهت من كتابة هذا الكتاب . كنت سعيداً للغاية وهي أيضاً كانت تغمرها السعادة بعدما أتمت اول عمل أدبي في حياتها رغم صغر عمرها . وأعطت الكتاب إسم آخر رجال الثورة . أسعدني ذلك العنوان وأشعرني بمكانتي وذاتي التي لوثتها الأيام الماضية . وكان ميلاد هذا الكتاب ولادة عسيرة . فقد دارت نور بالكتاب علي العديد من دور النشر . منهم من رفض العمل برمته . ومنهم من نثر العراقيل في طريقنا بوضع متطلبات مالية باهظة . ومن حسن الحظ توصلت نور لدار نشر تدعي الإبداع العربي تؤول لشخص ودود يدعي مدحت عبد الله وتبني العمل ونشره علي نفقة الدار كاملاً . كدت أخر صريعاً من ذلك الخبر . كنت سعيداً غير مصدقاً ما

يحدث . وكادت نور أن تقفز في السماء من السعادة الغامرة الذي إحتوت المنزل كله . كان الخبر مدوي في ملتقي العائلة الذي تلي نشر الكتاب . إستقبله أحمد الراوي في عدم إصغاء أما حسين الراوي فهتف قائلاً في صوت ضاحك غامزاً خليل الراوي :

ـ بات الأدب مشاعاً في أيدي اللصوص لكي يسطرون من خلاله سيرتهم المليئة بالجرائم ..

إلتقط منه خليل الراوي طرف الحديث قائلاً :

ـ لم يكن بين الظباط الأحرار لصاً في يوم من الايام يابن العم .

جذبه صفوت الراوي من ذراعه بشدة ثم قال حانقاً :

ـ كلهم كانوا لصوص بلا إستثناء .

صمدت أمام كل هذا الهراء ثم قدت إبنتي وزوجتي إلي شقتنا .

وبعد يومان فقط كان الكتاب قد صودر من السوق وقيدت إبنتي إلي الظلام بدون أي تهمة . بحثت عنها أنا وأمها في أقسام الشرطة ولكن بلا جدوي لم أجدها في أيً منهم . ذهبت إلي خليل الراوي بمكتبه في المحافظة وطلبت منه أن يسعي

بمنصبه ونفوذه من أجل أن تخرج نور من السجن ولكن بلا جدوي . رفض خليل أن يتدخل بالأمر بحجة ان الكتاب يحمل نصوص كاذبة ومدلسة وبعيدة كل البعد عن الحقيقة . فغادرت مكتبه واجماً باسماً بعد أن أغلقت كل المنافذ في وجهي .
سئمت لحال إبنتي التي إنتزعت من بيننا عنوة بسببي أنا . كانت أمها تبكي طوال اليوم لا تنضب دموعها ولا تفتر . كان المنزل كله حزيناً غارقاً في الكآبة . وكان يناير يشرف ثلثه الأول علي النهاية فإنتابني خوف دفين من ذلك الحلم الذي زارني العام الماضي . ولكني قلت ليكن ما يكن فقد إنتهت عائلتي وهوت إلي الحضيض .. خلوت إلي فراشي كي أنعم بالراحة بضع ساعات بعد هذا اليوم المنهك . تمددت علي فراشي وأظلمت عيناي حتي ذهبت في سبات عميق..

شعرت بشئ يخطو أسفل مني . فتحت عيني لتصفعني الشمس الحارقة علي جبهتي المعروقة . سار جسدي سائراً وحده وانا ممدد علي جسم خشبي . أنزلني ذلك الرجل الغليظ الهرم من علي ظهره الذي كان يحملني فوقه لا أعلم كيف . ثم أنزل ذلك الصندوق الذي كان يضعني فيه في صحراء لا يسكنها البشر . كنت مسلسلاً من يدي لا أستطيع التحرك . ثم تقدم نحو جسم رخامي صلب . أزاجه بكل ما يملك من قوة مفسحاً لشعاع الشمس المشتعل أن يتسلل إلي حفرة عميقة كانت

تقطن أسفل الجسم الرخامي . ثم جذبني من الصندوق الخشبي . وبلا أدني مجهود كنت مرمياً في تلك الحفرة أودع أخر ضياء شمسي ستراه عيني . وبعد لحظات كان الظلام القاتم قد جثا فوق عيناي إلا الأبد .

أستيقظ سكان العالم جميعهم إلا أنا . فقد أظلم كل شى فجأة .. يا لك من حلم لعين ..

★★★

حكمت الراوي

متي نزع الشرف من قلوبنا ..؟

أكان موت فهيم وإنحدار هدي إلي الهاوية القشة التي قسمت ظهر البعير . أم اننا نحمل ذلك الكره البغيض من قبل ولكن كنا ننتظر أن يآين الوقت المناسب ..

كرهت أمي لأنها خانت أبي بعد أن خانت أمانتها وأخلت بواجبها تجاه أولادها . وكنت أكره أبي لأنه ترك كلٍ منا يرتع ويلهو كما يشاء حتي إنتهي كل شئ بنتيجة كارثية . أما هدي وفهيم فكنت أحمل لهم العطف ، علي الرغم من كرهي لهدي . كانت هدي فتاة جميلة ولطيفة ، ذات مظهر براق لا يستطيع أحد أن يصمد أمامه ، كانت لديها نظرات تستطيع أن تعبث بأي رجل مهما كان . كان جمالها لا يصدق . كنت أضمر لها الغيرة كلما أنظر إلي المرآة لأتطلع وجهي الدميم . لا يوجد بينها وبيني أي وجه شبه . لم أري الحب في حياتي ولن أراه علي ما أعتقد . لقد خلقت كي أبتاع جسدي مجاناً . ولكن للأسف كرامتي لا تسمح . لم يحبني أي زميل في المدرسة ولا في الجامعة . فكانت هدي تحظي بكل ذلك في كبر وترفع

وكأنها لا تري شئ في الوجود إلا وجهها الفاتن . طوال حياتي كنت أشاهدها فقط دون أن أحظي بأي محاولة . كانت تترك أحدهم مفسحة المجال لأن يتقرب منها زميل آخر وهكذا كانت حياتها . أما أنا فكنت موقع سخرية في المدرسة بسبب التناقض الصارخ بيني وبين أختي .

★★★

في عهد الطفولة يكون كل شئ نقي وطاهر وصريح وحقيقي . علي عكس ما نشعر به عندما نكبر فتتوقف مشاعرنا وعواطفنا علي المصالح المتضاربة وعلي المنافع المأمولة وعلي الأفكار المبنية علي أشياء أخري تدر علينا النفع والفائدة .. لذلك في الصغر يكون الحب حب لا يضاهيه شئ . حب واضح لا يعرف النفاق ولا التملق ولا المجاملات المملة الفاترة يكفي أن تقول " أنا أحبك " حتي تنفتح لك أبواب الجنة فتري كل شئ ناصع وجميل وبراق . وكذلك الكره في الطفولة لا يضاهيه أي كره . فهي كراهية خالية من أي كلام رسمي . يكفي أن تقول أنا اكرهك حتي يشتعل قلبك حقداً وسخطاً من ذلك الشخص . فأنا كرهت أختي في الطفولة أكثر من أي وقت آخر . وظل ذلك الشعور يشيع في قلبي حتي

أصبحت أمقتها تماماً وأشفق علي سذاجة عقلها وحبها الجنوني لمظهرها وجمالها والإعتناء بهما ..

ولكني شعرت ببعض التميز علي الجميع عندما إلتحقت بكلية التجارة من دون إخوتي . ففهيم مات قبل أن ينهي المرحلة الثانوية . وهدي عزفت عن إكمال الدراسة بعد أن تزوجت من عيسي . أما أنا فأكملت مسيرتي العلمية .

★★★

كنت أجلس في المدرج أستمع إلي محاضرة هامة في المحاسبة المالية ، كان بجواري شاب له قسمات مقبولة وشعر ممشط وقامة طويلة ، نظرت نحوه عابسة فابتسم إبتسامة هادئة مظهراً أسنان مصفرة أنهكها التبغ . أثارت إبتسامته إشمئزازي بعض الشي ولكني قلت لنفسي لما لا ..؟

صفعتني المفاجأة عندما إقترب مني حتي لاصق جسدي وأخذ يعبث بيده في أعلي فخذي . جحظت عيناي بشدة ونضحت جبهتي بالعرق وغمرني الخوف والخجل في آن واحد ، ولكني تركت النشوة تسري في جسدي لأول مرة ،وسمحت للخدر بأن يتلاعب برأسي حتي ثملت وغبت عن الوعي في شعور

ممتع ولذة لا توصف . ولأول أواعد شاب . قادني بعد المحاضرة إلي أحد الحانات الضيقة التي ترامي فيها الطلبة من نفس عمرنا . تجرعت الخمر لأول مرة مع هذا الشاب ونهلت من قبلاته التي صفعني بها علي وجهي . رقصت كمن ملك الجنون عقله . أخذت أترجح كمن يرقص لآخر مرة في حياته . شعرت بأن جسدي يتراقص وحده دون الحاجة إلي إرادتي . شعرت بالموت . أمتع ما في الخمر أنه يجعلك تحيا الموت وانت مازلت علي قيد الحياة . ثم جذبني من خصري وعرجنا إلي الحمام . وفي أحد الأركان المظلمة ألصقني بالجدار وإلصق جسده الجسيم بي . واخذ يرتطم في كل ثنايا جسدي حتي شعرت بإضرام النار في شهوتي الدفينة ، فتحسست عزيمتي الصلبة المتجمدة وهي تخور وتنساب في مسيرها أسفل حذاء ذلك الشاب ليطأها في عنف . إبتلع شفتاي وأخذ ينهل من عبيرهم . إمتدت يداه إلي خصري وأحكم لصقي بالجدار ، ثم دنا بيده إلي طرف فستاني فرفعه إلي أعلي وأخذ .....

.....

بعد أن أنهي الشاب عمله و أطفأ ثورة شهوته ملقياً بها في جسدي النحيل البالي . هندم من ملابسه وعدل من شعره المشعث ، ثم خرج من الحمام وكأنه لا يراني . أنزلت فستاني

في هدوء ولم أصدق ما أري أمامي . كانت هدي في أحد الأركان المظلمة المواجهة لي وهناك شاب في مثل عمرها يضاجعها ويستنشق رحيقها بلا هوادة . صرخت مشدوهة غير مصدقة . فالتفتت إليّ غير مصدقة أنها تراني هنا . إفترشت الدهشة وجوهنا إلا أن عدلت من ثوبي سريعاً ثم طرت إلي الخارج . أخذت أعدو حتي وصلت إلي منزلنا . أولجت المفتاح في الباب وأنا أبكي بصوت واهن . دخلت دون أن يلفت إليّ أحد . صدحت الهتافات والنقاشات من حجرة المكتب . وتعالت صيحات المتعة واللذة من خلف باب الحمام ، ثم تخللت حجرتي المظلمة ذات الهواء الخانق وإرتميت علي فراشي ، وأخذت أبكي وأصفع نفسي وأضرب جسدي الذي تهاوي ضعيفاً واهناً تحت أقدام الغرائز المجنونة .

في المساء طرقت أمي باب حجرتي كي أتناول العشاء . وقفت أمام المرأة مسحت دموعي التي تجمدت علي خديا . ثم إلتقطت حقيبتي وأخرجت منها قنينة زجاجية كنت قد إشتريتها صباح هذا اليوم . ثم واريت تلك القنينة في ملابسي وإتجهت نحو المطبخ . ثم أخرجت القنينة من ملابسي بعد أن إطمأنيت أن ما من أحد يراني . ثم أفرغت القنينة في دوراق عصير البرتقال . ثم خرجت به في يدي ووضعته علي طاولة الطعام وجلست كي أتناول وجبة العشاء الأخير .

طلب أبي من أمي أن تفرغ له في كأسه القليل من عصير البرتقال البارد . صبت له ثم لنفسها وقبل أن تودع الدوراق مكانه طلبت منها أن تملأ لي كأسي أنا أيضاً . رشف أبي نصف كأسه وأمي أيضاً أنهت كأسها في ثلاث رشفات فقط . تسللت السكينة إلي قلبي ثم عدلت من جلستي حتي أكون في مواجهتم ثم قلت في هدوء تام :

ـ أمي .. لماذا كنتي تخونين أبي ..؟

ـ ماذا ..؟

قالتها أمي غير مصدقة ما تصغي إليه ، وهي تتطلع أبي الذي وجم تماماً ..

ـ أبي .. هل تجرأ علي ملاقاة الله بعد ما إقترفت من ذنب في حق أولادك .. ؟

هم أبي في الرد ولكني إقتطعت كلماته عنوة :

ـ أمي .. هل أشبعتي شهوتك الشبقة بعدما ضاجعك كل الرجال الذين مروا بهذا المنزل ... كيف عجزتي عن الفكاك من خطيئة إبنتك لتقعي انتي فيها ..؟

تورد وجه أبي واشتد حنقه . أما أمي فظلت واجمة تتطلعني بتركيز لتري أين يكمن الجنون الذي تملكني .

- في الصباح كان هناك شاب يضاجعني في أحد الحانات القذرة .. تشبعت بلذة الجنس كما تستمتعين بها يومياً يا أمي العزيزة . وكانت هدي أيضاً هناك يتناوب الشباب علي مضاجتها .

صرخ أبي وهتفت أمي صارخة في وجهي . ثم تغيرت ملامحهم وجحظت عيناهم وتلوت أحشاءهم ، وبعد دقائق قليلة كانوا مرتمون فوق الطاولة لاصقين وجوههم وملوحين بذراعهم إلي أبعد نقطة . نهضت من مقعدي تاركة المجال لملك الموت بأن يتولي أمرهم ثم إنعطفت إلي حجرة المكتب . جلست علي مقعد والدي تحسست الكتب المكدسة والاوراق المتناثرة . فتحت الادراج المكدسة بالملفات والاوراق ثم أغلقتها بعدما أخرجت ورقة بيضاء فارغة . وضعتها أمامي وعلي وجهي بسمة فاترة . تطلعت الورقة بعينان جاحظتان يلوح بداخلهما الجنون ، ثم إلتقط قلماً من أعلي المكتب الخشبي ثم شرعت في الكتابة .

"ها هي الحياة وتلك هي الدنيا . وهؤلاء هم البشر بكل ما يحملون في طياتهم من تعقيدات ومساوئ. تجدهم يحبون شخصاً ثم يمقتوه ، يحفظون عهداً ما ثم ينقضوه . يصافحونك باليمني وإذا باليسري تحمل سيفاً براقاً يتهاوي علي رقبتك

ليجزرها . يكرهون الحياة بكل مفاتنها البراقة ويخشون الموت بكل ما يحمله من سكينة . وتلك هي الخديعة . إنه الجحيم ذاته الكامن في العقل البشري الواهن . أحمد الراوي ، سليمان الراوي ، خليل الراوي ، فاطمة الراوي ، حسين الراوي ، علوية فريد الصاوي ومحمود الراوي وعيسي الراوي ، ومصطفي الراوي وفهيم الراوي ، وهدي الراوي .. وإلهام نشأت ... تلك هي العائلة المتباغضة . الكل يقف في الساحة شاهراً سيفه أمام الآخر . وفي النهاية قد إنحدر الجميع إلي الهاوية ولم يبقي منكم أحدا . الطريق مغلف بالأشواك والاقدام مخضبة بالدماء . العار لكم جميعاً علي ما إقترفتوا . تلك هي اللعنة "

مضيت بإسمي في نهاية الورقة ، ثم نهضت من مقعد والدي المثقل بالإسفنج والجلد المتين المقوي . ثم عدت إلي مقعدي علي طاولة الطعام وجلست أتطلع أجسادهم المحنية التي فارقتها الحياة . ثم وبجرعة واحدة إلتهمت كأس العصير في تلذذ . وفي غضون دقائق كان الظلام يلون الأجواء تدريجياً موحياً بالنهاية .

الخاتمة

مات يوسف الراوي ثم تلته زوجته . عاش صفوت الراوي عمراً مديداً حتي تأمل مصر ما بعد الثورة وهي تتهدم حجراً تلو الآخر . قُبض علي خليل وأعدم بعدما قام بقتل زوجته السابقة جميلة الشرقاوي . حيث وشا به سليمان الراوي عندها وأخبرها بأنه متزوج من غيرها ولديه إبنان . وعندما علم والدها صاحب النفوذ الواسع سعي جاهداً حتي أقاله من عمله بالمحافظة . و فشل في الفوز بإنتخابات مجلس الشعب التالية وبذلك ضاعت وظيفته وسلطته . وفي أحد الأيام التالية حمل إبنه الرضيع علي يده وذهب به إلي حماه اللواء صادق الشرقاوي وزير الداخلية . ومنحه إياه قائلاً في إستجداء :

ـ إنه ابني أسميته صادق ..

لم تفلح مساعيه وطرده اللواء صادق باشا الشرقاوي شر طردة . وعلم خليل بعد ذلك بقليل بأنها سوف تتزوج من رجل يدعي صالح باشا حسنين . كان رجل أعمال شهير . وفي مساء أحد الأيام إنتظرهم ينزلون من سيارتهم وبمجرد أن لمست قدم جميلة الشرقاوي أرض الشارع كان خليل قد أسكن

السكين في قلبها حتي خرت صريعة في لحظتها . عرجت راوية شحاتة هي و أولادها إلي بيت الراوي . كما إنتقلت زينب القاضي بصحبة إبنها إلي بيت الراوي .

وترعرع الجيل الجديد تحت يد السيد ميري زوجة أمين الراوي الذي عاشت عمراً طويلاً شاهدة علي عصور متعاقبة لا تنضب . وبذلك أضرمت الحياة في بيت الراوي من جديد بعدما تخلله الصغار صادق خليل الراوي وياسمين خليل الراوي واسماعيل أبراهيم الراوي . وعاشت زينب و راوية علي ذكري أزواجهم منهمكين في تنشأة الجيل الجديد . عاش عيسي الراوي مستكيناً إلي مقعده تاركاً زوجته تبتاع جسدها لمن يشتري في كل ليلة . أما محمود فإنهمك في عمله بين المدرسة صباحاً يعمل بالحصة ، وبعد الظهيرة يستقل التاكسي الذي شارك فيه أحد أصدقائه لزيادة دخليهما . أما أحمد الراوي فظل هكذا بعقله الخرف حتي تداعت ذاكرته وتهدل رأسه ومات بعد شهور قليلة . أما شريف فقد نهب أموال زوجته الذي أصابها الخرف ودارت تشحذ وتتسول في الشارع في أخر أيامها حتي خرت صريعة بجوار أحد الجدران العفنة .

★★★

وهاهي الحكاية بكل ما تحمله من حقائق بينة ومن أقاويل متوارثة تلوكها الألسن المفتونة بالحكايات . وبرغم كل شئ ظل بيت الراوي صامداً أمام السنوات المتسارعة ، يشرق به حي العطارين وظل مقهي الراوي يحمل نفس الإسم محتفظاً بتاريخه العتيق . لا أعلم هل سيشب هذا الجيل علي ركام الأجيال الماضية أم لا ..؟ ولكن عليكم أن تتوخوا الحذر وتعلموا ماهية الدنيا قبل أن تحيوا .

تمت

الفهرس

أحمد الراوي ٧

سليمان الراوي ٤٨

إبراهيم الراوي ٧١

مصطفي الراوي ٨١

أحمد الراوي ٩٠

سليمان الراوي ٩٦

مصطفي الراوي..... ١١٠

حكمت الراوي ١٢٤

أحمد الراوي ١٣٣

سليمان الراوي ١٤٦

حكمت الراوي ١٥٤

الخاتمة ١٦٤

الفهرس ١٦٨

عبث وجنون

غرقت عائلتي في بحر من الخطايا . إنحدرنا نحو الجحيم . نحو النهاية البائسة . أصابتنا التعاسة والكدر . بات المنزل فارغاً تعانقه أشباح الليل وتتناوب علي زيارته أشخاصاً كانوا يقطنوه .. أري في المساء شبح فهيم يتجول في أرجاء المنزل عابثاً بكل الحجرات . أري هدي تتطلعني في المرآة بوجه عابس . أري عيسي علي مقعده الغليظ يدور بسرعة بالغة في المساء مصدراً أصداء صاخبة توقظني أحياناً .

بات منزلنا مثار للرعب . ينطوي علي ثلاثتنا رغم ما نحمله في طياتنا من كره ومقت تجاه بعضنا . صامداً في جلد أمام الحرب الضارية التي نضمرها لبعضنا . الكل يريد أن يشهر سيفه أمام الآخر . متي نزع الحب من قلوبنا ..؟

هدي الراوي ...